طبعة اولى — بوانس ايرس — 1943
طبعة ثانية — بـــيروت — 1947

الصراع الفكري في الأدب السوري

بيروت طبعة ثانية منقحة 1947



مقدمـة

في شهر مايو من هذه السنة وقعت في يدي نسخة من العدد الثاني، السنة الاولى ، من مجلة « العصبة » التي كانت تصدر في ســان باولو ، البرازيل، وهو العدد المخصص لشهر فبراير سنة 1935 . كانت نسخة وسخة الغلاف وقــد انتزعت منها صفحات عديدة والصفحات البـاقية مخلخلة ومهددة بالعطب . مع ذلك رأيت ان انظر في هذه الصفحات واقف عــلى ما فيها فوجدت نص مراسلة ادبية بين ثلاثة ادباء سوريين هم امين الريحـــاني ويوسف نعمان معلوف وشفيق معلوف . والمراسلة المذكورة عبارة عن ثلاثة كتب مشتملة على آراء ونظريات في الشعر والشـاعر . والشعر والشـاعر يدخلان في موضوع الادب الذي كان قد استلفت نظري ما يجري من تخبط وتخليط فيه.

قرأت الكتب الثلاثة المشار اليهـا وقرأت التعليق الاخير الذي الحقه بها شفيق معلوف حين دفعهــا للنشر في المجلة المذكورة . فشعرت بالنقص الفكري الكبير الذي مثلته تلك الكتب في هذا الموضوع وبالحاجة الى درس يتناول موضوع الادب في اساسه ويجلو الغوامض الكثيرة التي أشوت فيها سهام الرماة وضاعت مجهودات الكتاب . على اني لم اجد منفسحا من الوقت للقيـــام بهذا الدرس ، على الوجه الذي اريده . فحاجات صحيفة « الزوبعة » التي كان لا بد من قيامي على ادارتها وكتابة اهم مواضيعهــــا وابحاثها السياسية والاجتماعية

والفلسفية ، مضافة الى حاجات ادارة فروع الحزب السوري القومي الاجتماعي عبر الحدود ومعالجة المسائل والقضايا الكثيرة التي تعرض لها ، والى حاجات الاذاعة القومية الاجتماعية في اوساط السوريين عبر الحدود ، فضلاً عن الاهتمام بتتبع السياسة الانترنسيونية وعلاقتها بالامة السورية ونهضتها القومية الاجتماعية، كانت اكثر مما يمكنني وحدي سد ثغراته فكيف اعمد الى توسيع دائرة الاعمال وزيادة القضايا التي تشغل فكري من غير الحاق عجز كبير بشؤون كثيرة .

بعد استعراض مستعجل لهذه الحالة قررت ارجاء الموضوع الادبي الى وقت مؤات . ومضت بضعة اشهر انجزت فيها بعض المطاليب الهامة. ولكن المسائل المتعلقة بطبيعة عملي لم تنقص ، بل زادت . وفي هذه الاثناء كان موضوع الادب يلوح امام ناظري ويطل من وراء المشاكل الادارية والنفسية والسياسية التي تعرض امامي . ولم اكن اجهل علاقة الادب بهذه المشاكل وامكانيات تذليلها بانشاء ادب جديد، حي . وكم كنت اتألم من تفاهة الادب السائد في سورية واشعر ان فوضى الادب وبلبلة الادباء تحملان نصيبا غير قليل من مسؤولية التزعزع النفسي والاضطراب الفكري والتفسخ الروحي المنتشرة في امتي . وكان هذا التألم يحفزني لانتهاز كل فرصة عارضة للفت نظر الادباء الذين يحدث بيني وبينهم اتصال الى فقر الادب السوري وشقاء حاله وفداحة ضرره ولتوجيههم نحو مطالب الحياة وقضاياها الكبرى وخطط النفس السورية في سياق التاريخ . ومن الذين اتصلوا بي في سان باولو ، البرازيل ، وافضيت اليهم برأيي ثلاثة من افراد « العصبة الاندلسية » بينهم مدير مجلة « العصبة » التي نشرت المراسلة الادبية المذكورة آنفا . كان ذلك في احد ايام يناير ١٩٣٩ ، على الارجح ، بمناسبة قيام الادباء الثلاثة المذكورين بزيارة رسمية لي . فقد سألت اولئك الادباء عن السبب الموجب لنشوء « العصبة

الاندلسية » وهل لها غرض او مذهب ادبي يجمع بين افرادهـا ويوحد اتجاههم. فاجاب مدير مجلة « العصبة » جوابا استوثقت منه انه لا يوجد شيء واضح من هذا القبيل. فابديت للزائرين رأيي في الامر وقد اشتمل عـلى نظريات توجيهية جعلت احدهم يقول ، فيما بعد ، « ان الزعيم محدث ممتـاز » . فتأسفت كثيراً ، لان ذاك الاديب قصر همه على مزايا المحدث دون افكاره وآرائه ، والعهدة على الناقل . ومثل هذه السابقة جعلني ازداد شعورا بالحاجة المـاسة الى بحث في الادب ومهمته وفي الادب الذي تحتاج اليه سورية وخصائصه .

بين الحاح هذه الحاجة والحاح المسائل الاخرى التي لا تفتأ تزدحم في مكتبي رأيت ان استسنح اول فرصة للتوفيق بين الجاذبين . فلما فرغت من اهم المسائل المستعجلة قررت الكتابة في هذا الموضوع بالاستناد الى مـا ورد في مراسلة الادباء الثلاثة المنشورة في مجلة « العصبة » . وكانت الطريقة العملية الوحيـدة الممكنة ، للتوفيق بين مختلف الحاجات ، ان اكتب لكل عدد من « الزوبعة » قسما من البحث وهذه الطريقة الاضطرارية اوجبت قطع التفكير في الموضوع عند نهاية ما يفي بحاجة عدد الجريدة والانتقال الى معالجـة الشؤون الاخرى المتنوعة ، حتى اذا حان موعد صدور العدد التالي ، عدت الى الموضوع والفترة بين الانقطاع والعودة نحو خمسة عشر يوما تنازعت فيها الفكر شواغـل ومهام عديدة . فكان كل قسم جديد يكلفني جهداً كبيراً في الوصل بين اسبابه واسباب القسم السابق له . وكان من وراء ذلك فوات تفاصيل كثيرة هامة .

وكنت اريد ان احدد الموضوع بما جاء في المراسلة الادبية المشار اليهـا . وهو مقتصر على ناحية الشعر . ولكني اضطررت الى تعديل هذه العزية بسبب اطلاعي ، بعد كتابة المقال الاول ، الذي نشر في العدد ٥٠ من الزوبعة الصادر في ١٥ اغسطس الماضي ، على آراء رهط آخر من كبـار ادباء سورية ومصر

منشورة في بعض اعداد « الهلال » التي وردتني هدية من احد الرفقاء القوميين الاجتماعيين . فعرضت للادب عامة ، فضلاً عن الشعر ، وكان ذلك دائماً ضمن حدود التوفيق المذكور التي اوجبت الاقتصار على الاساسي ، الضروري والاستغناء عن الاسهاب والتفاصيل الواسعة المجال ، التي رأيت تركها لاستنتاج المفكرين والادباء .

اتممت هذا البحث في ثمانية اقسام تشبه المقالات نشرت متلاحقة في ثمانية اعداد من « الزوبعة » ابتداء من العدد الصادر في ١٥ اغسطس وانتهاء في العدد الصادر في ١ ديسمبر 1942 . وفي اثناء نشر الاقسام المذكورة وردتني رسائل من ادباء ومن بعض محبي الادب يبدي فيها اصحابها اهتمامهم للبحث ورغبتهم في اقتنائه . وبعض هذه الرسائل حمل اقتراح طبعه مجموعا في كتاب على حدة ، تعميما للنظريات الواردة فيه . فوافق ذلك رغبتي واغتنمت اول فرصة لاصدار هذا الكتاب .

وقد عنيت بمراجعة البحث وتنقيحه وتصحيحه من الاغلاط التي وقعت عند نشره في « الزوبعة » واضفت اليه ملاحظات جديدة قليلة لم ترد في « الزوبعة » . وفي هذه الناحية صعوبات اخرى ناتجة عن نظام المطابع السورية في بوانس ايرس وكيفية عملها .

بوانس ايرس ، في ~~١٥~~ 15 ديسمبر ~~١٩٤٢~~ 1942 .

انطون سعاده

مقدمة الطبعة الثانية

وصلت الى الوطن نسخ قليـــلة من الطبعة الاولى ، التي طبعت في بوانس ايرس ، فاثارت اهتمام الادباء والدارسين والطلبة والاوساط التي لهـــا عناية بالشؤون الادبية وتطور الفكر في سورية واقترح علي طبع الكتاب ثانية ليتسنى للراغبين في الادب اقتناؤه . فنقحت الكتاب ودفعته للطبع

الشوير ، في 15 يونيو 1947

المؤلف

تخبط وفوضى

تخبط وفوضى

تقديم البحث في « الزوبعة »

نشرت مجلة «العصبة» التي كانت تصدر في سان بولو ، البرازيل ، في عددها الصادر في فبراير سنة ١٩٣٥ ثلاثة كتب تدور على ديوان « الاحلام » للشاعر شفيق معلوف نزيل سان بولو ، البرازيل ، وقد لفت نظري الاحتكاك والتصادم الفكريان في الشعر واغراضه اللذان اثارهما ظهور « الاحلام » ورأيت انهما يفتحان الباب لبحث يجب ان يحيا ويجد اهتماماً كبيراً في دوائر التواقين الى المعرفة والفهم والراغبين في الارتقاء الثقافي الذي يمكن الامم من ابراز افضل مواهبها والصعود الى قنة مجدها . والى القارىء الكتب المذكورة وتعليق الشاعر الاخير عليها حين سلمها للنشر ، كما وردت في مجلة « العصبة » المحتجبة :

— ١ —

من كتاب الريحاني

عن الفريكه في ١٢ نيسان ١٩٢٦

عزيزي شفيق المعلوف حفظه الله

اشهد انك شاعر . ولكنك في « الاحلام » بعيد عن كنه الحياة والمقاصد الكبرى فيها . قد كانت هذه اللهجة — لهجة الكآبة والحزن — « موضة » في زمن بيرون وميسه . وهي في الشرق ، خصوصاً فينا نحن السوريين ، داء

دفين . فما فضل الشاعر وهو يبكي ويئن مثل عامة النـاس ؟..

اما من النظر الفني ففي « احلامك » كثير من بديع التصور ، وجميل الخيال ورقة التعبير ، ونعومة الديباجة . ولكنك مقلد يا صديقي . ولا اقول مقلد لجبران وهو مثلك في دموعه من المقلدين — اقرأوا اشعيا بدل ان تغمسوا ارواحكم في دموع ارميا . عودوا الى شكسبير وغوته — اذا كان لا بد مـن العود — بدل ان تحرقوا اصابعكم ومآقيكم في مراجل ميسه وبيرون .

ليس الشاعر «زنبقة في جمجمة» ان في ذا التصورغلوافيه سقم وليس فيه شيء من الحقيقة والجمال . ان فيه تحقيراً للجنس الانساني، وانا وانت وجبران منه والحمدلله . وان في الكون وفي الحياة جمالا اسمى وابهى واعظم واجل من جمال الزنبقة اللطيف المحـدود ، وانت وانا وجبران ، والشمس والقمر والمجرة ، لمعات مجسدة من ذلك الجمال والحمد لله .

اما الشاعر فهو من الناس ، من صميم النـاس . وليس من ظن نفسه فوق النـاس بابن عم لابن عم اصغر الشعراء . انمـا الشاعر الحقيقي مرآة الجماعات ، ومصباح في الظلمـات ، وعون في الملمـات ، وسيف في النكبات. الشاعر الحقيقي يشيـد للامم قصوراً من الحب والحكمة والجمـال والامل . كفكفوا دموعكم سلمكم الله . وارفعوا لهذه الامة التي تتخبط في الظلمـات مشعالا فيه نور ، فيه امل ، فيه صحة وعافية . وان في الصحة حياة جديدة .

صديقك

امين الريحاني

— ٢ —

من كتاب صاحب « الايام »

عن نيويورك في ١٤ تموز ١٩٢٦

عزيزي شفيق

... وددت لو يسمح لي الوقت بابداء بعض ملاحظاتي مطولا في ديوانك ولكن ما اريده لا يتاح لي فنحن هنا عبيد اوقاتنا ، غير ان ذلك لا يمنعني من ابداء رأيي في اشياء جوهرية اريدك ان تعيرها جانب الاهتمام .

اعتن في مؤلفاتك المقبلة ان تكون مبتكراً فيما تنزع اليه سواء كان بالفكر او بالعمل وان تكون مقلَّداً (بفتح اللام المشددة) لا مقلِّداً (بالكسر) في سائر اعمالك لان على هذه القاعدة الاساسية تتوقف شهرة المرء في الحياة وقبل كل شيء اترك الخيال الذي لا روح فيه ولا حقيقة . واطرق ابداً المواضيع الحيوية والعمرانية وشهر تشهيراً لا تخشى معه لوم اللوام مواضع الضعف في الامة مشيراً الى كل ضعف في اخلاقها وخلل في عاداتها ونقص في كيانها على سبيل حب الاصلاح المجرد ليس الا وان لا تعود حياتك كلها في ما تكتب الى البكاء والنواح على الطلول البالية والآثار الخربة كما يفعل اكثر الكتبة الشرقيين ولا سيما الشعراء منهم بل كن ذاك الرجل المفكر في الحياة وما تتطلبه الحياة من عوامل الرقي واسباب العمران ولا تكن شرقياً في خيالك وعملك بل المس بيدك ابداً حقائق الوجود واسع الى العمل بها دائماً وفي كل حين لان فضاء الشرق يمتاز عن كل فضاء . كله خيال بخيال يوحي الى المرء ما لا يوحيه فضاء آخر في الوجود فمنه اوحيت الاديان وظهر الانبياء ونشأت خيالات الارواح على تعداد منازعها وكثرة معتقداتها فكان شراً في الحياة على نفسه وعلى غيره — فكن يا شفيق اذا رجلا يؤخذ بالحقيقة لا يضله الخيال ...

عمك

يوسف نعمان معلوف

— ٣ —

جواب صاحب « الاحلام »

عن زحله في ١٥ ايلول سنة ١٩٢٦

سيدي العم الفاضل

... اما ما ذكرتموه عن « الاحلام » فقد اعرته كل اهتمامي منزلا رأيكم من نفسي اجل منزلة ، واما ان اكون « مقلداً (بفتح اللام المشددة) لا مقلداً (بالكسر) في سائر اعمالي » فهذا ما طمحت اليه منذ ترعرعت ونشأت . فكنت راسخ العقيدة في وجوب تجديد الشعر العربي وبث روح حديثة فيه ، ولئن طرقت بابا ولجه سواي فهل في كل ما تتناوله القرائح ما لم يطرق الناس بابه ؟ وهل اذا اتفق لرسام ابراز صورة عالجها من قبله آخرون فاستحدث لها الوانا وابتكر لها رموزاً واشكالا نقوم فننكر عليه فنه وابتكاره ، لان الصورة حملها قبل لوحه لوح وخطرت لسواه في مخيلة ؟

اما ان اترك في شعري « الخيال الذي لا روح فيه ولا حقيقة ، واطرق المواضيع الحيوية والعمرانية » فلا اخفي عنك يا سيدي العم الكريم ، مع احترامي لرأيك الاعلى ، ان لي رأيا آخر في الشعر . فهو في عرفي ذلك الشعور النابض يصور للناس نفوس الناس ، ولا تتعدى فائدته — في احايين كثيرة — منفعة يصيبها المرء لدى سماع قطعة موسيقية جميلة ، مطربة كانت ام مشجية . وقد اكون على خطأ من الوجه العالمي النافع ، ولكنني على حق من وجهة الفن الخالد .

ان للوطن كتابه وصحافييه وله اقلامهم المرهفة وقرائحهم المشحوذة . اما ان يسير الشاعر مع الحالات الطارئة فيبعث من حوله ضجيجاً يزول بزوال تلك الطوارىء فهذا ما لا اسلم به اذ ليس الشاعر في عرفي من ضج

له الجيل الواحد حتى اذا تبدلت الاوضاع واختلفت الاحوال تناسته من بعده الاجيال .

انا عالم ان الشرق لا يحتاج الى الفن حاجته الى المواضيع الحيوية العمرانية ولكن هذه المواضيع ترتبط بالزمان يا سيدي العم الكريم ، وانا من هواة الشعر الخالد الذي لا يرتبط بالازمنة ...

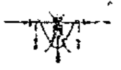
المخلص
شفيق معلوف

— ٤ —

حاشية — في ٢٢ شباط سنة ١٩٣٥

مضى على هذه الكتب الثلاثة زمن غير قصير ، ولو طلب الي الان رايي في ما انكره علي الكاتبان الكبيران من الكآبة والشكوى في قصيدة « الاحلام » لانكرت معهما على نفسي ذلك الاسلوب لو ان « الاحلام » كانت من منتوج العهد الحاضر . اما وهي قد نظمت في زمن لم اكن قد جاوزت فيه الثامنة عشرة من العمر ، تحت تأثير طور الفتوة المكتنف بالظلمات والحيرة وقلق النفس ، فانني اراها صورة حقيقية لنفسيتي في ذلك الحين كما يصح ان تكون صورة لنفسية معظم الفتيان ، وهذا ما يحببها الي ويجعل لها قيمتها في نظري .

شفيق معلوف



اعتقد ان الموضوع الذي طرقته الكتب الثلاثة لايجوز ان يبقى في هذه الحدود الاولية التي ورد فيها فالمعاني فيها كلها نتف مقتضبة لا تسد حاجة ولا تشفي غليلا . واذا كان يشفع في اقتضابها انها كتب خصوصية فلا يشفع شيء بالمرور بها دون تناولهـا بالدرس وتمحيص الافكار الواردة فيها . ولا اعتقد الحاشية التي ضمنها الشاعر تعليقه على كتابي منتقدي ديوانه بالغة الغاية التي يمكن ان تطمئن اليها نفس من لا يقنع من عظمة البحر بوشل ولا من سعة الافق بحيز حدده المستوى الداني الماضي .

لا اطمح الى قول كل ما اود قوله في الادب وفي الفن في ابعد ما امكن ويمكن النظرة الانسانية العليا بلوغه ، وجميع ما ينطوي تحت ذلك من اشكال والوان ، في عجالة اكتبها في صحيفة تلح عليها المطاليب السياسية وحـاجات التفكير القومي في القضايا الاجتماعية — الاقتصادية ، تحت ضغط الظروف الحاضرة التي تحملني من اعبائها ما لو زاد اكثر من نسبة قشة التبن الى الوقر لارهقني وارزحني . ولكني لم اجد بدا من قول شيء في الموضوع لابقائه حيا ولترغيب الادباء في الاقبال عليه ولا مندوحة عن ابداء بعض مـلاحظات خطرت لي فور قراءتي الكتب المثبتة آنفا .

أبدأ بكتاب الريحاني . ان فيه مواضع تحتاج الى تدقيق كثير . والاحظ ان في هذا الكتاب تعميما واطلاقا يجرفان الكثير من التفاصيل التي تبقى الحقيقة الكبرى الاساسية ناقصة نقصا كبيراً بدونها ويظل الفكر قلقا لا يجد استقرارا واطمئنانا الا بوجودها وجلائها .

نظر الريحاني في « الاحلام » فوجده ديوانا تسوده « لهجة الكآبة والحزن » ووصف هذه « اللهجة » بانها كانت « موضة » في ايام بيرن وميسـاه . وليس ديوان « الاحـلام » في متنـاول يـدي لاقـابـل هـذا الوصف

عليه واحد كم فيه من تدقيق . ولكني اذكر اني قرات هذا الديوان قراءة مستعجلة من نحو اربع عشرة سنة او يزيد واذكر ان التأثير الذي احدثه في هو تأثير نبضات الاحساس الاول وقد انقشعت حجب المراهقة عن قزحية الشباب فتمازجت فيها الاشواق والرغبات التي اتخذت صوراً من الجمال قوية ولاذعة احياناً ولكنها صور ظهرت فيها شاعرية جديرة بان تحل موضعاً مكيناً في النفوس وفي الاجيال . ومع ذلك فلا بد من القول ان تسمية « لهجة الكآبة والحزن » الذي اطلقه الريحاني هو من التعميمات التي لا تفيد كثيراً في دراسة معينة او مختصة بموضوع معين . وهو بعيد كل البعد عن تناول الوجهة النفسية واسبابها .

ومن هذا القبيل انتقاله من مخاطبة صاحب « الاحلام » الى مخاطبة جميع الشعراء السوريين فيقول لهم « اقرأوا اشعيا بدل ان تغمسوا ارواحكم في دموع ارميا . عودوا الى شكسبير وغوته بدل ان تحرقوا اصابعكم ومآقيكم في مراجل ميساه وبيرن » . ولو كان قيل هذا الكلام في غير معرض النظر في ديوان « الاحلام » لكان اطلاقه هذا الاطلاق غير المحدود يجد موضعاً امنع من موضعه الحاضر ، لانه يكون حينئذ كلاماً عمومياً يفهم منه من يشاء ما يشاء اما في موضعه المذكور فهو قليل المحصل . ولا يزيد المحصل من كلام الريحاني قوله ان الشاعر ليس « زنبقة في جمجمة » ولا قوله « انما الشاعر الحقيقي مرآة الجماعات ومصباح في الظلمات وعون في الملمات وسيف في النكبات . الشاعر الحقيقي يشيد للامم قصوراً من الحب والحكمة والجمال والامل »

هذا الكلام الاخير الذي يحاول الريحاني ان يخرج به من السلبية الصكراتية (السقراطية) الى النظرة الايجابية يزيد التعميمات السابقة تعميماً .

ويمكن ان يحسب من قبيل المعميات وليس فيـــه ادنى اقتراب من شجون الموضوع التي لكل شجن منها اتجاه خاص .

الحقيقة ان هذا الكلام لا يتعلق بديوان « الاحلام » بقدر ما يتعلق بالشعر والشاعر عـــلى الاطلاق . وهو مرسل ارسالا لا تحقيق فيه ولا تدقيق وليست فيه حقيقة اساسية واحدة يصح اعتمادهـــا « لتشييد قصور من الحب والحكمة والجمـال والامل » للامم التي تهدمت قصورهـا او لم يكن لهـا قصور . فاني لا اعتقـد ان شعراء سورية يصيرون غير مـا هم بقراءة سفر اشعيا وترك قراءة سفر ارميا . والعودة الى شكسبير وغوته وحدها لا تفيد كثيراً اذا لم تكن هنالك ثقافة واعية فاهمة تتبع خطط النفس السورية. وماذا استفاد ادب اللغة العربية كلـــه من عودة الشاعر المصري شوقي الى شكسبير غير النسخ والمسخ والتقليد الذي لم يضف الى ثروة الادب العـالمي مقدار حبة خردل ؟

اما قول الريحاني « الشاعر الحقيقي مرآة الجماعـــات ومصباح في الظلمات » فقلت انـه من قبيل المعميات ولم يصعد بنـا درجة واحـدة فوق قول جبران « الشاعر زنبقـــة في جمجمة » فمرآة الجماعـــات لا يكونها الشاعر وحده او كل شاعر وقد قال الدكتور خليل سعاده : « صحـــافة كل امة مقياس ارتقائها وصورة اخلاقها ومظهر شعورها وعنوان مجـــدها فهي المرآة التي ترى بها الامة نفسها » ومصباح الظلمـات يكونه الفيلسوف والفنان والاديب والشاعر والقائد والعـــالم وكذلك « عون في الملمـات وسيف في النكبات » . ويكونه كل واحد من هؤلاء بطريقة خاصة . وفي هذه الحقيقة يكمن سر لا يجلوه كتاب الريحاني ولا شيء مما كتب الريحاني . فقدعاد الريحاني الى هذا الموضوع في كراس عنوانه « انتم الشعراء » قبح فيه البكاء والعويل

تقبيحا كثيرا ولكنه لم يعط الشعراء درسا واحدا يوجههم توجيها جديدا ، لان كلامه كان كله من هـذا النوع الغامض المشوش الذي يشبه دعوة الداعين الى الاتحادالقومي من غير فهم او تعيين لما هي القومية وما هي مقوماتها .

اترك كتاب الريحاني عند هذا الحد وانتقل الى كتـاب السيد يوسف نعمان معلوف . والذي اراه في هذا الكتاب انه يشتمل على آراء فجة اومبتسرة مستمدة من الحياة الاميركانية العملية ذات الطابع الانغلوسكسوني وليس فيه شيء من العمق لخلوه من النظرة الفلسفية او التاريخية . وهـذه الآراء الواردة فيه هي مزيج من نزعة فردية ورغائب عملية واحكام عـامة استبدادية كقوله « فمنه (الشرق) اوحيت الاديان وظهر الانبياء ونشأت خيالات الارواح على تعدد منازعها و كثرة معتقداتها فكان شرا في الحياة على نفسه وعلى غيره »

تظهر النزعة الفردية بجلاء في قوله : « اعـتن في مؤلفاتك المقبلة ان تكون مبتكراً فيما تنزع اليه سواء كان بالفكر او بالعمـل وان تكون مقلدا (بفتح اللام المشددة) لا مقلدا (بالكسر) في سائر اعمالك لان على هذه القاعدة الاساسية تتوقف شهرة المرء » فكأن الشهرة الفردية صارت الغاية الاخـيرة المتوخاة من الفكر او العمل وكأن اهم شيء في طبيعة الفكر او العمل ان يكون المرء غير تابع غيره وان يكون متبوعاً . وهي قاعـدة فردية بحت لعل الدافع اليها ان المتكلم عم المخاطب ويهمه امره الشخصي استمساكا بعروة القرابة الدموية التي تنزع الى المباهاة والمفاخرة كما هو مشهور في قبائل العرب . ومع ان المخاطب ، وهو الشاعر المنتقد ، قبل هذه الفكرة الفردية في جوابه الى عمه فهو لم يتقيد بها كل التقيد الظاهر في كلام عمه فالقى عليه هذا السؤال : « ولئن طرقت بابا ولجه سواي فهل في كل ما تتناوله القرائح ما لم يطرق الناس بابه ؟» وهو سؤال يكاد يصل الى طرق باب ينفتح عن افق تنبلج فيه انوار فجر تفكير

اصلي جديد ، ولا يقطر الا خطوة او قفزة واحدة لتلج هـذا الباب . ولكنها خطوة او قفزة تفصل بين عالمين وقد تشبه نوعا القفز فوق العارضة العالية او التوزر بالاستعانة بعكاز طويلة خاصة بهذا الغرض .

والرغائب العملية هي التي تجعـــل عم الشاعر يقول له هذا القول : « وقبل كل شيء اترك الخيال الذي لا روح فيـه ولا حقيقة واطرق ابـــدا المواضيع الحيوية والعمرانية الخ » . فمحصل كلامه ان الخيال هو دائما لا روح ولا حقيقة فيه ، وان الشعر هو كله خيال . وهنا يتحول انتقاده الشاعر الى نوع من تقبيح الشعر والاشارة على نسيبه بوجوب تركه والانتقال الى طرق « المواضيع الحيوية والعمرانية ... ومواضع الضعف في الامـــة مشيراً الى كل ضعف في اخلاقها وخلل في عاداتهـــا ونقص في كيانهـا » . وكل ذلك لا دخل له في الشعر والشعراء ولا يخص الا بعلماء الاجتماع والنفس والسياسة. ولولا هذا التخصيص التوجيهي لـكان امكن التساهل في عبارة المنتقد السابقة واعتبارها مفيدة ترك نوع الخيال الذي لا روح فيه ولا حقيقة من اجل الاخذ بنوع من الخيال فيه روح وحقيقة . وقد اصاب الشاعر في الرد على هـــذا الكلام من وجهة الشعر ، خصوصاً قوله : « ان للوطن كتابة وصحافيه وله اقلامهم المرهفة وقرائحهم المشحوذة . اما ان يسير الشاعر مع الحالات الطارئة فيبعث من حوله ضجيجاً يزول بزوال تلك الطوارىء فهذا ما لا اسلم به ، اذ ليس الشاعر ، في عرفي ، من ضج له الجيل الواحد ، حتى اذا تبدلت الاوضاع واختلفت الاحوال تناسته من بعده الاجيال » . فهـــذا كلام من يشعر برسالة الشاعر الاسمى والفنان الذي من اهم صفاتـــه الابداع عن طريق التصور (الخيال) وهو اقوى كثيراً من قوله ان مهمة الشاعر هي « تصوير نفوس الناس للناس » الذي هو مرادف لقول الريحاني ان الشاعر « هو مرآة الجماعات »

وقد يكون متأثراً به . ولكنه مخالف له عند التفصيل ، لان « مرآة الجماعة » قد تعني « نفس الجماعة » اما « نفوس الناس » فيرجح انها تعني نفوس الافراد . والعبارتان ضمن الحدود التي قيلتا فيها ، ضعيفتان لانهما لا تشتملان على اية قضية نفسية علمية او فلسفية او على ادراك مضبوط لنفس الجماعة ونفس الفرد والفرق بينهما . والعبارة الثانية ، من هذا القبيل ، اضعف من الاولى لانها اكثر تعميا وهي لذلك اكثر غموضاً . ولكن اذا اخذنا هذه العبارة على وجه التدقيق ونظرنا اليها نظرنا الى معنى مقصود بعينه وجدنا انها اقوى ، في ذاتها ، من عبارة الريحاني ، لانها ابرزت لفظة « النفس » التي تدل ، سواء اكانت مفردة او مجموعة ، على اقوى واسمى ما في الانسان ، بينما عبارة الريحاني لا توجب الدخول في المسائل النفسية وقد تعني ابراز شؤون الجماعة وعاداتها .

من الغريب ان الشاعر الذي قال القول القوي المذكور آنفاً ، في صدد الشاعر ورسالته ، لم يجد بعد مضي تسع سنوات ونيف ، ما يزيده عليه او يكون شبه استمرار له ، وانه اكتفى بالقول في تعليقه الاخير على كتابي منتقديه انه لو طلب اليه رأيه الآن لكان « انكر على نفسه ما انكره علنه الكاتبان الكبيران من الكآبة والشكوى » .

لا يقتصر التضارب والتخبط في حقيقة الشعر وصفته ، اللذان دللت عليهما في ما تقدم من هذا البحث ، على الادباء الثلاثة السوريين المذكورين آنفاً ، بل هما يشملان اكثر الادباء اللامعين ، ان لم يكن كلهم ، في العالم العربي . فقد كان من حسن حظي وانا في هذه البلاد التي قضت الظروف ان تتوقف فيها رحلتي المرسومة ، اني تسلمت هدية كتبية من احد الرفقاء الغيورين فيها بعض مجموعات « الهلال » وبينا انا اقلب صفحات بعض أعداد ١٩٣٣ ، بعد كتابة الحلقة السابقة ، وقع نظري على رأي للدكتور

اصلي جديد ، ولا يقطر الا خطوة او قفزة واحدة لتلج هـذا الباب . ولكنها خطوة او قفزة تفصل بين عالمين وقد تشبه نوعا القفز فوق العارضة العالية او التسوّر بالاستعانة بعكاز طويلة خاصة بهذا الغرض .

والرغائب العملية هي التي تجعـــل عم الشاعر يقول له هذا القول : « وقبل كل شيء اترك الخيال الذي لا روح فيـه ولا حقيقة واطرق ابـــدا المواضيع الحيوية والعمرانية الخ » . فمحصل كلامـه ان الخيال هو دائما لا روح ولا حقيقة فيه ، وان الشعر هو كله خيال . وهنا يتحول انتقاده الشاعر الى نوع من تقبيح الشعر والاشارة على نسيبه بوجوب تركه والانتقال الى طرق « المواضيع الحيوية والعمرانية ... ومواضع الضعف في الامـــة مشيراً الى كل ضعف في اخلاقها وخلل في عاداتهـــا ونقص في كيانهـا » . وكل ذلك لا دخل له في الشعر والشعراء ولا يختص الا بعلماء الاجتماع والنفس والسياسة. ولولا هذا التخصيص التوجيهي لـكان امكن التساهل في عبارة المنتقد السابقة واعتبارها مفيدة ترك نوع الخيال الذي لا روح فيه ولا حقيقة من اجل الاخذ بنوع من الخيال فيه روح وحقيقة . وقد اصاب الشاعر في الرد على هـــذا الكلام من وجهة الشعر ، خصوصاً قوله : « ان للوطن كتابة وصحافيية وله اقلامهم المرهفة وقرائحهم المشحوذة . اما ان يسير الشاعر مع الحالات الطارئة فيبعث من حوله ضجيجاً يزول بزوال تلك الطوارىء فهذا ما لا اسلم به ، اذ ليس الشاعر ، في عرفي ، من ضج له الجيل الواحد ، حتى اذا تبدلت الاوضاع واختلفت الاحوال تناسته من بعده الاجيال » . فهـــذا كلام من يشعر برسالة الشاعر الاسمى والفنان الذي من اهم صفاتـــه الابداع عن طريق التصور (الخيال) وهو اقوى كثيراً من قوله ان مهمة الشاعر هي « تصوير نفوس الناس للناس » الذي هو مرادف لقول الريحاني ان الشاعر « هو مرآة الجماعات »

وقد يكون متأثراً به . ولكنه مخالف له عند التفصيل ، لان « مرآة الجماعة » قد تعني « نفس الجماعة » اما « نفوس الناس » فيرجح انها تعني نفوس الافراد . والعبارتان ضمن الحدود التي قيلتا فيها ، ضعيفتان لانهما لا تشتملان على اية قضية نفسية علمية او فلسفية او على ادراك مضبوط لنفس الجماعة ونفس الفرد والفرق بينهما . والعبارة الثانية ، من هذا القبيل ، اضعف من الاولى لانهـا اكثر تعميما وهي لذلك اكثر غموضاً . ولكن اذا اخذنا هذه العبارة على وجه التدقيق ونظرنا اليها نظرنا الى معنى مقصود بعينه وجدنا انها اقوى ، في ذاتها ، من عبارة الريحاني ، لانهـا ابرزت لفظة « النفس » التي تدل ، سواء اكانت مفردة او مجموعة ، على اقوى واسمى ما في الانسان ، بينما عبارة الريحاني لا توجب الدخول في المسائل النفسية وقد تعني ابراز شؤون الجماعة وعاداتها .

من الغريب ان الشاعر الذي قال القول القوي المذكور آنفاً ، في صدد الشاعر ورسالته ، لم يجد بعد مضي تسع سنوات ونيف ، مـا يزيده عليه او يكون شبه استمرار له ، وانه اكتفى بالقول في تعليقه الاخير على كتـابي منتقديه انه لو طلب اليه رأيه الآن لكان « انكر على نفسه مـا انكره عليه الكاتبان الكبيران من الكآبة والشكوى » .

لا يقتصر التضارب والتخبط في حقيقة الشعر وصفته ، اللذان دللت عليهما في ما تقدم من هـذا البحث ، على الادباء الثلاثة السوريين المذكورين آنفـاً ، بل هما يشملان اكثر الادباء اللامعين ، ان لم يكن كلهم ، في العالم العربي . فقد كان من حسن حظي وانا في هذه البلاد التي قضت الظروف ان تتوقف فيها رحلتي المرسومة ، اني تسلمت هدية كتبية من احد الرفقاء الغيورين فيهـا بعض مجموعات « الهلال » وبينا انا اقلب صفحات بعض أعداد ١٩٣٣ ، بعد كتابة الحلقة السابقة ، وقـع نظري على رأي للدكتور

محمد حسين هيكل بك ، احـــد كبار ادباء مصر ، في عـدد يونيو من السنة المذكورة . فاقبلت على المقال ووجدت انه حلقة اخرى من حلقـات التخبط في دائرة مغلقة على الادب ، اذ فيه من التعميات والمطلقات ما لا محصل ايجابي وراءه . اليك بعض عباراته : « اني افهم ان يكون التجديد هو ان يشعر الشاعر او الكاتب بشعور العصر الذي هو فيه ويعبر عن ذلك تعبيراً صادقـا ممثلا لصفات ذلك العصر الذي وضع فيه هذا التعبير بحيث يكون شاعر القرن الرابع عشر الهجري او كاتب القرن الرابع عشر (القرن العشرين) له شخصية خاصة تخالف شخصية الشاعر او الكاتب الذي ظهر في القرون السابقة مـــع المحافظة على قواعد اللغة وحدودها » « واست اقصد بالصفات الخاصة ان يعمد شعراء العصر الحاضر الى استخدام الفاظ المخترعات الحديثة في شعرهم او يتناولوا هـــذه المخترعات فيصفوها ، ويسموا ذلك تجديداً ، فاذا كان القدماء وصفوا الناقة او السيف وصفوا هم القطار او الطيارة او المدفع . واذا كان القدماء استعملوا في اشعارهم هند وليلى ودعد ، استعملوا هم سوسو وسوسن ومرغريت وماري الى آخره . بل اقصد بالصفات الخاصة ابراز كل مـا يقع تحت الشعور بحكم البيئة ، والتعبير تعبيراً صادقاً عن الحياة التي تحيط بهذه البيئة والظروف التي تلابسها وتجعل لها صبغة خاصة بحيث يعد الخروج عن هذه الصبغة خروجـا عن تلك البيئة . فانت تستطيع في الوقت الحاضر وفي البيئة التي تعيش فيهـا ان تصف الناقة او السيف وغيرهما مما تناوله القدماء باسلوب يتفق وشعور العصر الذي نعيش فيه والحياة العقلية السائدة في هذا العصر وحينئذ يقال انك وصفت هذه الاشياء باسلوب جديد »

وحسين هيكل يرى انه لا يوجـــد « شعر معبر عن العصر الذي نحن فيه وليس لنا شعراء يمتازون بصفات تخالف الصفات التي كان عليها بعض الشعراء

في العصور الماضية » ويزيد قـائلا : « وانا على يقين مـــن ان مؤرخ الادب العربي في الاجيال القادمة ، لو قدمت اليه قصيدة من قصائد العصر الحاضرقد حذف ما فيها من اعلام ، لايستطيع ان يعين العصر اوالجيل الذي قيلت فيه ولكنه يعترف بان النثر « قد امتاز بقوته واتجاهه نحو النهوض ورقي الحياة» العقلية فيه وخصبها وتشعبها وانتاجها »

هذا الرأي شديد الابهام وكثير التخبط . انظرفي غموض التعابيرالآتية : « بل اقصد بالصفات الخاصة ابراز كل ما يقع تحت الشعور بحكم البيئة ، والتعبير تعبيراًصادقاً عن الحياةالتي تحيط بهذه البيئة والظروف التي تلابسها الخ» . فماذا يفهم القارىءالجيد الادراك من هذه الاوصاف التيلا تزيد الموصوف الاغموضا ؟ ما هو الشعور بحكم البيئة وكيف يكون ؟ ومـا هي « الحياة التي تحيط بهـذه البيئة والظروف التي تلابسها » ؟

في عددنوفمبرمن السنة المذكورة رأيفيالتجديدفي الشعر للشاعرالسوري المتمصر خليـــل مطـران . انـــه ادق مـــن راي حســين هيكـــل. وهـــو يخـالفه في رأيه القائـل انه لم يحدث تجدد في الشعر . فقد حــدث مطران عـن نفسه : « اردت التجديد في الشعر مذ نعومـة اظفاري ولقيت دونـــه ما لقيت مـــن عنت ومناوأة ... اردت التجديد في الشعر وبذلت فيه ما بذلت مـن جهد عن عقيدة راسخة في نفسي وهي انـه في الشعر ، كما في النثر ، شرط لبقاء اللغة حية نامية . عـلى انني اضطررت ، مراعاة للاحوال الـتي حفت بها نشأتي ، الا افاجىء النـاس بكل ما كان يجيش بخاطري ، وخصوصا الا افـاجئهم بالصورة الـتي كنت أوثرها للتعبير لو كنت طليقا ، فجاريت العتيقفي الصورة بقدر ما وسعه جهدي وتضلعي من الاصول واطلاعي على مخلفات الفصحاء ، وتحررت منه ، وانا في الظاهر اتابعه ، بنوع خاص من

الوضع والتصوير ومتابعة الغرض الخ . » وبعد ان يعطي وصفا مجتزءاً لحاجة اللغة الى ضروب التعبير السليم ، الواضح ، الدقيق قاطبة ، يصل الى نتيجة لا تبعد كثيراً عن النتيجة الهائمة التي وصل اليها الريحاني ويوسف معلوف وحسين هيكل واليك قوله : « اريد ان يكون شعرنا مرآة صادقة لعصرنا في مختلف انواع رقيه . اريد كما تغير كل شيء في الدنيا ، ان يتغير شعرنا ، مع بقائه شرقيا ، مع بقائه عربيا ، مع بقائه مصريا . وهذا ليس باعجاز »

في عدد « الهلال » عينه ، الذي ورد فيه رأي خليل مطران في التجديد في الشعر ، مقال لحسين هيكل في « الفنون الرفيعة واثرها في حياة شرقنا العربي » . في هذا المقال يلخص هيكل وجهة نظر الريحاني في حملته على الادب الباكي عن طريق نقده لقصيدة بشاره الخوري التي مطلعها « الهوى والشباب والامل المنشود توحي فتبعث الشعر حياً » ووجهة نظر بشاره الخوري في رده على الريحاني التي لا تختلف كثيراً عن وجهة نظر شفيق معلوف في رده على عمه في كتابه اليه المثبت آنفا . وقد حاول هيكل ان يكون في هذا المقال ادق منه في رأيه السابق المذكور فوق . فقال ان الرأيين (رأي الريحاني ورأي الخوري) هما في طبيعة الوجود . وعلل منشأ الجدل بانه من نتائج « ما يصيب الشرق العربي من هوان سياسي وانحلال اجتماعي » ثم انتقل الى محاولة ايضاح اشد رسوخا وذي صفة ايجابية فقال : « وقد اصيبت الفنون بما اصيبت به تبعا لظروف الحياة التي يخضع لها الشرق العربي والتي تخضع الانسانية من بعد الحرب لها . ولا يكون علاجها بانكار ما للدموع وما للشجن من اثر في الحياة . وانما يكون علاجها بان تبعث الدموع وان يبعث الشجن النفسي الى التماس المثل الاعلى ، كما تدفعها الحماسة وتدفعها النجدة والمروءة الى التماسه . ولو ان ارباب الفن في الادب والغناء والنقش وسائر الفنون الرفيعة وضعوا هذا المثل امام

انظارهم لارجعوا الى الفن حياة اقوى بكثير من حياة اليوم ولما كان الجدل الذي ثار في هذا الصيف الأخير بين امين الريحاني وبشارة الخوري » .

بعد الكلام المتقدم يحاول هيكل ان يخطو خطوة فاصلة فيقول :
« ماذا عسى ان يكون المثل الاعلى ؟ اعتقد ان الشرق قد ضل طريقه في هذه العصور الاخيرة متأثراً بتعاليم الغرب فاصبح مثله الاعلى ماديا ، يحسب الحرية التي تسمو بها النفس الى المكان الارفع ان ينال الجسم وان تنال الشهوات كل مبتغاها . وقد يكون للبيئة الطبيعية في الغرب ما يدفع الى التطلع الى مثل هذا المثل الاعلى . لكن بيئة الشرق الطبيعية وتاريخه منذ العصور الاولى ، وتاريخه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الاسلامية (المحمدية) في ربوعه ، يجعل هذا المثل الاعلى الذي يتخذه الغرب امامه دون ما تتطلع اليه النفس الشرقية . فهذه النفس تؤمن بوحدة الوجود وترى في هذه الوحدة والاتصال بها والفناء الروحي فيها غاية ما ترجوه ولذلك كانت امثال هذا الشرق تجري بأن من اعتز بغير الله ذل . ومن افتقر لغير الله هان . ولا تعرف شيئاً في الحياة يعادل تقوى الله . افيمكن ان يصور الفن هذه المعاني وان يصل بها من درجات السمو الى ما يجب ان يصل اليه الفن ؟ »

هي اول محاولة للانتقال من الغموض الى الوضوح ومن التعميم الى التخصيص ومن السلبية الى الايجابية ولكنها محاولة غامضة ، متخبطة ، مطلقة ، مستبدة . ففيها ينظر هيكل الى الفن من زاوية « الشرق والغرب » ويحدد الشرق بكلام لا تحقيق فيه لتاريخ « الشرق » الذي يذكره ولا لفلسفة ذلك التاريخ ولا للمحمدية نفسها التي يطبعها ، استبداداً ، بهذا الطابع الجزئي ، وكان الافضل ان لا يحاول تجريدها من خصائصها العملية في مناديه

حياة البيئة التي نشأت فيها . اما تحديده المثال الاعلى للشرق كله ، مدخلا فيه العالم العربي كله ، فهو من التحديدات الاستبدادية الضيقة ، التي تكون اكثر قبولا عند عامة المتعلمين وعند قليلي التعمق من خاصتهم ، نظراً لبساطتها وقلة ما تطلبه من انعام نظر وجهد في التفكير ، ولكنها ليست مما يمكن العقل الفلسفي الاساسي الاطمئنان اليه وقبوله مستقراً لتفكيره وشعوره . وكم يخالف هذا التفكير السطحي المتمركز في تحديد التصور بالامر الواقع رأي الدكتور خليل سعاده في روحية الشرق الدينية اذ قال : « الدين في الشرقي قطعة من حياته . فهو يحسب الحياة وسيلة لتشريف الدين (تقوى الله والفناء الروحي في وحدة الوجود) لا الدين وسيلة لتشريف الحياة والسمو بها من مرتبتها الحيوانية الى مرتبة روحانية تطهر الاخلاق وتهدم الفواصل الغير الطبيعية القائمة بينه وبين اخيه في الوطنية والبشرية » (المجلة ، السنة الاولى ، العدد ١٣ ، بوانس ايرس في ١٥ديسمبر ١٩١٥)

اني موقن كل اليقين بفساد ذاك التقسيم السطحي الذي يعد الشرق كله روحياً والغرب كله مادياً ويحسب طلب مبتغيات الجسد وشهواته من « التأثر بتعاليم الغرب » . ولكني اعتقد ان توقف سير الحضارة في الشرق عند حد هو ما جعل النفس الشرقية تعمد الى الفناء في الشؤون الخفية من المسائل النفسية فصارت مسائل اللاهيولى او ما وراء المادة المسائل الوحيدة التي تتجه اليها النفس التي اضطرت لهذا النهج بسبب ترك النظر في المسائل الوجودية ، الهيولية ، الحسية . وحيثما انعدمت اسباب التقدم العمراني انعداما يكاد يكون كليا صارت مطالب ما وراء المادة نفسها مادية في معظمها فصارت الجنة جنة حلى وملابس وعطور وما شاكل . واعتقد ان اطراد سير الحضارة في المتوسط والغرب ، ابتداء من سورية ، جعل

للمسائل النفسية ، الوجودية ، الهيولية ، الحسية النصيب الاوفر من انشغال النفس . اما المادية والروحية فهما من نصيب الشرق والغرب كليهما . ويصعب كثيرا ، من وجهة نظر الحياة ، حسبان قسم كبير من المسائل النفسية الخفية التي تعنى بها شعوب « النفسية الشرقية » مسائل روحية بالمعنى الحيوي . ويدخل في هذا القياس المسائل الخفية الشائعة في الغرب كالروحانية والصوفية وغيرهما وكما وجدت المادية في الغرب كذلك وجدت في الشرق فمسائل الحب المادي والشهوات الجسدية نشأت نشوءا مستقلا في الشرق كما في الغرب . وفي الفنون المعبرة عن النفسية الشرقية احسن تعبير نجد الموسيقى التي يسمونها « العربية » او الشرقية قد اتخذت وجهة مادية من الشهوات الحادة في حين ان الموسيقى الغربية انتصرت على المادية انتصاراً رائعاً وارتفعت فوق فضاء الشهوات الجسدية ارتفاعاً عظيما . فللشرق مادية قوية وروحية منعكفة على المسائل الخفية التي لا تبرز الى الحياة او الوجود وللغرب مادية قوية وروحية تعنى بالوجود وبتسامي الحياة ضمن الوجود الانساني وهي على عكس روحية الشرق التي طلبت التسامي وراء الوجود (الوجود الانساني) . ولذلك ارى من اشد الخطأ حسبان التسامي وراء الوجود وحده « روحية » والتسامي ضمن الوجود « مادية » .

اذا كان الشرق المتسكع في قيود المادة قد رأى ، في ارقى فلسفاته الهندية والصينية ، ان الطريقة الوحيدة لانتصاره على المادة هي اهمال قضايا المادة وثقافتها ، فان العقل السوري الذي خطط للمتوسط والغرب قواعد ثقافته المادية والروحية رأى ان الانتصار على المادة يكون بمعالجتها والقبض عليها وتسخيرها للغايات النفسية الجميلة التي تجعل الوجود الانساني جميلا ، صريحاً ، نيراً .

ان تحديد المثال الاعلى في عبارة حسين هيكل : « من اعتز بغير الله ذل

ومن افتقر لغير الله هان » هو تجميد لا قوة له لغلب المادية في الحياة الروحية وشؤونها في الوجود . وهو ليس مبدأ روحيا الا اذا حسبنا الروحيات قاصرة على الغيب .

انها نظرة مصرية شرقية هذه النظرة التي تضع المثال الاعلى في هذه العلبة المطرزة الخفيفة الحمل يحملها المرء في جيبه وينتقل بها من مكان الى مكان وكلما عن له النظر في المثال الاعلى فتح العلبة واخرجه منها ونظر اليه باعجاب وشهق شهقة الفرح ثم اعاده الى موضعه واستمر في حاله من حله وترحاله . «الفناء الروحي في وحدة الوجود » اذا كان مثالا اعلى فهو مثال عدمي او فنائي لا وجودي والروحية الموافقة له هي روحية كسيحة ، مريضة تتجه نحو الغيب الذي تجعله مستقرا للوجود وتشيح بوجهها عن الوجود الانساني الذي لا تحسبه الا عبارة الى الغيب وواسطة للفناء فيه .

هذه النظرة التي يثبت بها الادب المصري نفسيته الشرقية هي نظرة منافية لخطط النفس السورية في سياق التاريخ . وعدم اخذ السوريين بهذه النظرة هو من الادلة على ما ذهبت اليه حين اعلنت ان سورية ليست امة شرقية وانها ليست ذات نفسية شرقية . واذا كان السوريون اولعوا بالتغني « بالمزايا الشرقية » التي وصلت اليهم في مزيج من ادب الهند والفرس والعرب فما ذلك الا لتلاشي نظرتهم الى الحياة وضياع مثلهم العليا في تعاقب الفتوحات واضطراب مجرى الحياة السورية الاجتماعية والروحية . وهذه الحقيقة هي التي جعلت ميخائيل نعيمه يسبق حسين هيكل الى حسبان نفسه شرقياً وتفضيله النظرة « الشرقية » التي يزعم انها تقول مع محمد : « ولا غالب الا الله » على النظرة التي يزعم ان الغرب يعبر عنها بقوله : « ولا غالب الا انا » (انظر فتاوى كبار الكتاب والادباء في مستقبل

اللغة العربية ونهضة الشرق العربي . طبع « الهـــلال » مصر سنة ١٩٢٣)
فهو قد جعل الغرب كأنه يقول « ولا غالب الا انا » وهو يقصد بقوله المقابلة
بين موقف الشرق وموقف الغرب من الوجهة السيـاسية والعمرانية قبل كل
شيء . وقد أخذ حسين هيكل فكرة نعيمة في التعبير عـــن موقف الشرق
وجعلها مثالا اعلى للنفسية الشرقية .

لنتابع تفكير نعيمه قليلا . انه يقول في مقالته التي اجاب بها عـلى
استفتاء مجلة « الهلال » ان الفرق بين الشرق والغرب منحصر في نقطة واحدة
جوهرية هي : « ان الشرق يستسلم لقوة اكبر منه فلا يحاربها والغرب يعتقد
بقوته ويحارب بها كل قوة . الشرق يرى الخليقة كاملة لانها صنع الاله الكامل .
والغرب يرى فيها كثيراً من النقص ويسعى لتحسينها . الشرق يقول مع محمد :
« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » . ويصلي مع عيسى : « لتكن مشيئتك » .
ومع بوذه يجرد نفسه من كل شهواتها . ومع لاوتسو يترفع عن كل الارضيات
ليتحد بروحه مع « الطاو » او الروح الكبرى . اما الغرب فيقول : « لتكن
مشيئتي » . واذ يخفق في مسعاه يعود اليه ثانية وثالثة ويبقى يعلل نفسه بالفوز .
وعندما يدركه الموت يوصي بمطامحه لذريته » وفي اعتقاد نعيمه : « ان فرسخا
مربعا من بلاد الصين « الخاملة » يحوي من الجوهر اكثر من كل جزائر اليابان
« الناهضة » .

هذا كلام اذا ازلت منه زخرف التعبير الادبي ، الشعري لم تجد فيه
حقيقة واحدة غير جهل شؤون الحياة وتطورها منذ ظهر الانسان على مسرح
الطبيعة وجهل التاريخ وفلسفته . فالشرق ، لعلة طبيعية ، على الارجح ، حاول
مـــن قبل « تحسين الخليقة » كما حاول الغرب « تحسينها » من بعد . ولذلك
نشأت الاديان في الشرق ، اي لتحسين الخليقة . وقد « حسنت » الاديان الخليقة

تحسيناً كبيراً ، ولا شك . ولكنها عصت كل تحسين جديد نشأ بعد احكامها فاصحابها لا يقرون بمعرفة جديدة الا مكرهين . واذا كان عيسى ، السوري البيئة ، رمى الى تأديب النفوس بقوله : « لتكن مشيئتك » فهو اعلن الانتقاض على « المنزل » بالذهاب الى «تكميل الناموس » ومحمد نفسه الذي نشأ في بيئة بعيدة عن التفكير بالقضايا الفلسفية الكبرى نطق بالوحي « ولكل اجل كتاب » . فليس في سنة المسيح ولا في سنة الرسول ، اذا اخذت كلها ، ما يمنع «تحسين الخليقة » او ما يرفضه . ولست اعتقد ان تعاليم بوذه ولاوتسو انشئت بقصدمنع التفكير في « تحسين الخليقة » ولكن العقلية الشرقية ، التي عجزت عن حل قيود الروح المادية بنظرة الى الحياة والكون فاهمة ، هي التي وقفت عند « احكام » الفلسفات الدينية وتعليلاتها الافتراضية المستندة الى« قوة اكبر منها » حددتها تلك الفلسفات تحديدات متباينة جعلت الخالق الواحد « ينزل » تعاليم غير واحدة فيما يختص بالحياة الانسانية ضمن الوجود وقبل«الفناء في وحدة الوجود » .

اختار ميخائيل نعيمه التكلم على « الخليقة » و « تحسينها » ليضع القارىء امام الاصطلاح . وكلامه كلام اديب ، لا كلام فيلسوف او عالم او فنان . وها الصين تترك اليوم « جوهر » الخمول لتاخذ « بعرض » النهوض . وليس يعني ذلك زوال القواعد الصالحة من تعاليم لاوتسو .

مما لا شك فيه ان نفسية الذين يذعنون لكل « ما كتب الله ان يصيبهم » ترى في هذا الاذعان اجمل المثل العليا واحبها وافضلها . وسواء اكانت هذه النفسية شرقية ام غربية ، فهي نفسية لها مصيرها وهو غير مصير النفسية التي لا تقبل بما هو دون « ما يكتبه الله » للذين يعملون بالمواهب التي اعطاهم .

ان صوفية نعيمه الهدامة التي ابرزها في احد خطبه في بيروت سنة ١٩٣٢

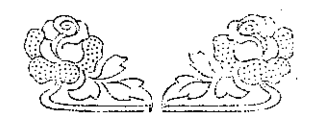
او ۱۹۳۳ بقوله ان القوة هي في الامم العاجزة « المستغنية » عن التسلح (وان يكن استغناؤها قهراً او كرهاً) وان الضعف هو في الامم المستكثرة من الال الحرب ، قد نبذتها سورية ولا تفكر في جعلها مثالا اعلى لها . اما في مصر فقد تجد تربة جيدة لنموها وازدهارها كما يظهر من اقتباس حسين هيكل مثاله الاعلى من عبارة ميخائيل نعيمه الواردة في مقابلته بين الشرق والغرب ومن اقوال غيره كمصطفى صادق الرافعي .

ولم يخرج من دائرة التخبط في موضوع النهضة الادبية غير من ذكرت من كبار الادباء . طه حسين نفسه الذي يعد في مقدمة مفكري مصر وفي طليعة كبار ادبائها كتب مقالة في عدد « الهلال » الصادر في نوفمبر ۱۹۳۳ بعنوان « نهضتنا الادبية وما ينقصها » قال فيها ان الادب في اللغة العربية قد سار مرحلة كبيرة وانه لا تزال تنقصه اشياء وخلاصة المقالة ان مواضع الضعف « في نهضتنا » هي : 1 — اتصالنا بادبنا القديم ضعيف لم يبلغ ما ينبغي له من القوة . 2 — ثقافة ادبائنا من الادب الاجنبي ثقافة محدودة . 3 — ادباؤنا لا يحسنون الآداب الاجنبية القديمة التي انشأت الادب الاجنبي الحديث . 4 — لا يحفل ادباؤنا بالعلم ولا يأخذون انفسهم بدرسه والالمام بطائفة منه . وفي رأي طه حسين انه اذا ازيل هذا الضعف من « ادبائنا » فنهضتنا الادبية تستكمل شروط ارتقائها الى ذروتها . والحقيقة ان هذا الكلام يدخل في ما عبر عنه طه حسين نفسه في مقالته المشار اليها « بالطول والعرض » اي بالخلو من العمق . انه كلام شكلي لا اساسي ، كما سيتضح فيما يلي

وعباس محمود العقاد كاتب مصري آخر كبير ذو شهرة اجاب في عدد « الهلال » المذكور فوق على سؤال : هل يصبح لنا ادب عالمي ؟ وفي جوابه يقول : « فالادب العالمي ليس مرتبة من مراتب السمو يرتفع اليها الكتاب

والكاتب ، ولكنها حالة من الحالات تتيسر اسبابها فتظهر وتخطئها هذه الاسباب فيخطئها الظهور » والظاهر انه يعني بالادب العالمي انتشار الكتب بواسطة الترجمة والطبع في مختلف اللغات لا قيمة الادب العالمية . فيأخذ يبحث عن الظروف والاسباب العملية التي تذيع الكتاب ، كالغرابة عند المترجَم اليهم ووجود المترجِم وحسن الطباعة ووجود شركات النشر ونسبة عدد القراء وغير ذلك من الامور السطحية والعماية التي لا يمكن ان يقوم عليها ادب عالمي لامة من الامم على نسبة ارتقاء المثال الاعلى والفكر والفن .

والخلاصة انك لو جمعت جميع الاقوال والآراء المتقدمة وامثالها لما حصل لك منها غير اضطراب في الفكر وتشتت في الشعور يحرمانك ادراك حقيقة الادب عموماً والشعر خصوصا ، ورسالة الفن .



تجديد الأدب وتجديد الحياة

تَجَدِيدُ الأدَبِ وَتَجَدِيدُ الحَيَاة

الفكرة البـــارزة في جميع الامثلة المتقدمة من تفكير نفر من اشهر ادباء اللغة العربية في العصر الحـاضر هي : ترك البكاء التقليدي والتحسر والتلهف والنواح والندب التي اغرقت الشعر العربي القديم في عبابهـــا وتغرق الشعر السوري والمصري الحديث في ذاك العباب عينه ، اللهم الا بعض استثناءات نادرة تطمو عليها الصفات المذكورة ويحتـــاج محب الاطلاع لمجهود كبير في الغوص عليهـــا . هذه الفكرة هي فكرة سلبية يدفع اليهـا الملل من الجمود والضرب على وتيرة واحدة . ولكنهـا ليست بالفكرة الجديدة في ادب اللغة العربية . فقديماً اظهرها الشاعر الفـــارسي المزيج ، السوري البيئة والحضارة ابو نواس باسلوبه المجوني البديع :

قل لمن يبكي على رسم درس　　　واقفاً ما ضر او كان جلس ..

وقال ايضاً :

عاج الشقي على رسم يسائله　　　وعجت اسأل عن خمارة البلد

فابو نواس تهكم على الوقوف على الطلول والبكاء والعويل ، لانه ابن بيئة تختلف عن بيئة شاعر الصحراء ولانه متحدر من شعب خبر من الحياة الواناً غير الوان حياة الصحراء . وقد استيقظ ابو نواس لهذه الحقيقة ووجد في البكاء والندب وسؤال الطلول عجزاً مضحكا . فقال قوله الذي سبق به جميع دعاة «التجديد» من ادباء اليوم . وادباء العصر الحاضر ، مع كل اجتهادهم ، لم يتجاوزوا موقف ابي نواس من العويل والانتحاب على الطلول وعلى العهود الا قليلا .

كل اجتهاد امين الريحاني بلغ الى القول ان الشاعر يجب ان يكون « مرآة الجماعات » ومبلغ اجتهاد حسين هيكل هو ان التجديد في الشعر « هو ان يشعر الشاعر او الكاتب بشعور العصر الذي هو فيه ويعبر عن ذلك تعبيراً صادقاً ممثلا لصفات ذلك العصر الذي وضع فيه هذا التعبير » وكل اجتهاد خليل مطران بلغ الى قوله « اريد ان يكون شعرنا مرآة صادقة لعصرنا في مختلف انواع رقيه » . وهذا الرأي هو ارقى ما وصل اليه تفكير ادباء سورية ومصر حتى اليوم . فاذا كان هذا هو غاية الشعر والشاعر فلا حاجة لكل ذلك الكلام الكثير على التجديد وترك التقليد ، الذي هو من قبيل تحصيل الحاصل.

ان ادباء العصر الذي نعيش فيه يمثلون بادبهم عصرهم اصدق تمثيل . انهم لا يحتاجون الى تغيير اسلوبهم ليمثلوا عصرهم ، كما يتوهم حسين هيكل في تخبط فكري للخروج بالادب والفنون الجميلة من الحالة التي هي فيها او كما يظن خليل مطران . اليس العصر في سورية ، الى ان بزغت انوار النهضة القومية الاجتماعية، عصر جمود وذهول وتقليد واستكانة ؟ اليس العصر في مصر عصر تقليد شرقي ومسخ غربي ؟ بلى ان العصر في سورية لكذلك وان العصر في مصر لكذلك اذن فالادباء في سورية وفي مصر هم « مرآة جماعاتهم » تماماً وممثلو عصرهم تمثيلا صادقاً والمطلوب من كل الكلام الذي ملاء به طالبو التجديد صفحات ومجلدات هو حاصل . ومع ذلك فالحاجة الى التجديد او التغيير باقية وهي على ازدياد والتوق الى حالة جديدة يقوى يوماً بعد يوم . فاين السر في هذا التناقض وهذا التباين؟ هو في بعد الادباء الذين عالجوا الموضوع عن صلبه وعن قضاياه الكبرى التي ليست هي قضايا ادبية بحت .

خذ مثلا كلام حسين هيكل على « العصر » الذي يعيش فيه الشاعر . فكأني بحسين هيكل يفهم العصر من خلال مطالعاته في الادب الفرنسي.

وليس من درسه وضعية مصر . وكأني بامين الريحاني يرى ان عكس نفسية الجماعة هو شيء اصطناعي اساسه الغش او الرياء كأن يمثل الشاعر السوري نفسية شعبه وحالته الروحية بالاقتباس او الاكتساب من ادب شكسبير وادب غوته اللذين يمثلان ادب شعبين آخرين فيظهر شعبه بغير مظهره الحقيقي . وهذا ما يفعله كثير من الادباء في مصر وبعض الادباء في سورية فيمسخون نفسية شعبيهما مسخاً . وكأني بخليل مطران الذي اطلع كثيراً في الادب الفرنسي يجهل ان العصر الحاضر في اوروبة شيء وفي سورية ومصر شيء اخر . انه يعمى عن الحالة التي عليها الشعب السوري والحالة التي عليها الشعب المصري فيحسب انهما في حالة الشعوب الاوروبية عينها ويبدو لقارىء عبارته ان الادباء وحدهم في سورية ومصر بقوا متأخرين عن حالة العصر وهو غير الحقيقة .

— ماذا ينتظر من الشاعر الذي ولد في بيئة يغشاها الجهل ويغمرها الذل والخنوع ولم يفتح عينيه الا ليرى ظلمة الفوضى والبلبلة والتسكع في المادية وربيت نفسه على تأوهات العجز وحسرات الفوات ومُثل الشهوات وامثلة الجمال المادي وميول الغرائز البيولوجية ، خصوصاً الشاعر الذي يجب ان يكون ، في عرف كتّاب « التجديد » مرآة الجماعات او مرآة عصره ؟ اينتظر منه غير اتباع ما شب عليه ووعاه من امثلة الادب الذي وصل اليه ؟ كلا . كلا .

ان الادب ، كله ، من نثر ونظم ، من حيث هو صناعة يقصد منها ابراز الفكر والشعور باكثر ما يكون من الدقة واسمى ما يكون من الجمال ، لا يمكنه ان يُحدث تجديداً من تلقاء نفسه . فالادب ليس الفكر عينه وليس الشعور بالذات . ولذلك اقول ان التجديد في الادب هو مسبب لا سبب — هو نتيجة حصول التجديد او التغيير في الفكر وفي الشعور — في الحياة وفي النظرة

الى الحياة . هو نتيجة حصول ثورة روحية ، مادية ، اجتماعية سياسية تغير حياة شعب باسره واوضاع حياته وتفتح آفاقا جديدة للفكر وطرائقه وللشعور ومناحيه .

يلاحظ مؤرخو الادب ودارسو عناصره وعوامله ان التغيرات او الانقلابات السياسية يعقبها تغير في الادب واساليبه . ويذهب جمهورهم الى ان النهضات او التغيرات السياسية هي سبب نهضة الادب والفنون الجميلة . والذي اراه ان التغيرات السياسية ليست هي في ذاتها المؤثر او الفاعل الاساسي في تغيير مجرى الادب لاني ارى الاحداث السياسية نتيجة لابتداء تغير النظرة الى الحياة او لحصول اعتقادات ومثل عليا روحية – مادية جديدة في شعب من الشعوب فتدفعه النظرة الجديدة او التعاليم الجديدة الى استنباط الوسائل التي تتحقق بها مطالبه . ومن هذه الوسائل اساليب السياسة واشكالها وخططها واهدافها . فالسياسة ،في حد ذاتها ، شبيهة بما حددت به الادب . فحيث لافكر ولا شعور جديدين في السياسة لا توجد سياسة جديدة ولا نهضة سياسية ، وكذلك في الادب . فحيث لا فكر ولا شعور جديدين في الحياة لا يمكن ان تقوم نهضة ادبية او فنية .

يذكرني بحث وسائل انهاض الادب السوري والادب المصري ببحث وسائل ترقية فن التمثيل في سورية . فقد سألني احد هواة هذا الفن ، منذ عدة سنين ، عن كيفية ترقية تمثيل الروايات في سورية . فقلت ان الامر مرتبط بترقية حياة الشعب السورى نفسه . فان تمثيل ادوار الحب والشهامة والبطولة بالوان راقية يحتاج الى شعور الممثل بهذه الصفات شعوراً راقيا . والذين لم يتعودوا من الحب غير اتجاهاته الفيزيائية لا يمكنهم ان يمثلوا حالاته النفسية السامية . وقد شاهدت مرة احد هواة التمثيل في دمشق ، وهو

شاب متنور ، يحاول تمثيل دور التعارف مع فتاة ينتظر ان يقع حبه في قلبها ويقع حبها في قلبه فجاء الدور بعيداً جداً عن اعطاء النتيجة المرغوبة على مستوى راق من الشعور والتصرف . وواحد آخر كان من نصيبه ان يمثل دور الوالد الذي نأت به الاقدار عن ابنته وحسب في عداد الاموات ثم عاد سالماً موفقاً ليضم ابنته اليه . فلما جاء حين المقابلة مع ابنته وظهرت الفتاة التي تمثل دور الابنة حبطت جميع المحاولات لجعل ذراعي الوالد تمتدان بلهفة وتضمان الفتاة برفق وحنان . كانت الانوثة اقوى تأثيراً على الرجل من مشهد الابوة والبنوة الذي يشترك في تمثيله . ولو كان الرجل نشأ غير نشأته لكان اقرب الى اجادة تمثيل دوره .

الاديب والشاعر والممثل هم ابناء بيئاتهم ويتأثرون بها تأثراً كبيراً ويتأثرون كثيراً بالحالة الراهنة الاجتماعية — الاقتصادية — الروحية . والفنان المبدع والفيلسوف هما اللذان لهما القدرة على الانفلات من الزمان والمكان وتخطيط حياة جديدة ورسم مثل عليا بديعة لامة باسرها . ولا يقدر على ذلك الاديب الذي وقف عند حد الادب والصور الجزئية التي تشتمل عليها صناعته . والشاعر الذي هو « مرآة الجماعات » او « مرآة عصره » لا يقدر ان ينهض بالشعر او بالادب ، لان هذا النهوض يعني ضمناً : النهوض بالحياة وبالنظر الى الحياة . والشاعر الذي شأنه عكس حالة جماعته او عصره كالمرآة ليس بالمرء الذي ينتظر منه ايجاد حالة جديدة لشعبه او لعصره . فهذا شأن المعلم ، الفيلسوف ، الفنان ، القائد ، الذي يقدر ان يخطط تاريخاً جديداً لامته ويضع قواعد عصر جديد لشعبه . وله ان يكون اديباً شاعراً اذا شاء وليس عليه ان يكون ذلك . وللشاعر ان يكون معلماً فيلسوفاً فنانا قائداً اذا قدر وليس عليه ان يكون ذلك .

+ ان من الظلم للشاعر ان يطلب منه تمثيل عصره او جماعته تمثيل المؤرخ والعالم الاجتماعي . فكلام الريحاني وخليل مطران وحسين هيكل هو ظلم للشعراء وتكليف لهم ان يكونوا غير ما هم . قد يكون في شعر الشعراء ما يستدل به على حالة عصورهم والافكار والاعتقادات الشائعة فيه ولكنه ليس حتمياً ان يدرس الشاعر عصره حين يحاول نظم قصيدة في فكرة او عاطفة او منقبة او حادثة . ان قصائد الشاعر التي ينظمها غير مفكر بعصره او بغيره من العصور هي التي يغلب ان تجيء اكثر انطباقاً على حالة عصره وادبه ، ولذلك قلت ان شعراءنا يمثلون عصرنا تمثيلا صادقاً . واعني بعصرنا العصر الذي تعيش فيه سورية وليس العصر الذي تعيش فيه بريطانية او المانية او فرنسة او روسية . وفي رأيي ان عصر سورية الحاضر هو غير عصر هذه الامم الحاضر وان كان الزمان واحداً . فحالة سورية الاجتماعية — الاقتصادية — السياسية — النفسية تختلف عن حالة الامم المذكورة . فكأنها تعيش في عصر غير عصر تلك الامم . ولذلك لم يمكن ان يكون نتاج شعرائها مطابقاً لعصر ارقى الامم الاوروبية التي خلفت وراءها ثورات عظيمة في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وفي العلم والفلسفة ، بينما سورية تتخبط في دياجير تاريخها الاخير الفاجع ، وقد نسيت فلسفات اساطيرها وثوراتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الغابرة التي اضاء نورها ارجاء العالم المعروف آنئذ وكانت اصلاحاتها مثالا لاثينة ورومة .

سبق لي القول ، في مكان آخر : ان الشاعر ، في عرفي ، هو الذي يعنى بابراز اسمى واجمل ما في كل حيز من فكر او شعور او مادة . وازيد هنا اني ارى ان من اهم خصائص الشعر : ابراز الشعور والعاطفة والاحساس في

كل فكر او في كل قضية تشمل عناصر النفس ، واعطاء الشعور والاحساس والعواطف صورا مجازية او خيالية عناصرها القوة والجمال والسمو مع عـــدم مفارقـة الحقيقة والغرض الانساني . واكرر القول ان الشعر ليس الفكر بعينه، من غير حرمان الشاعر حق ابداء الافكار الكلية او الجزئية كلما شاء وامكنه ذلـك .

ليس الشعر ، في عرفي ، مجرد شعور كما عبر عنه شفيق معلوف في كتابه الى عمه ، وبشاره الخوري في رده على الريحاني . اني ارى الشعر ، او ، على الاقل ، الشعر المثالي الاسمى شديد الاتصال بالفكر وان يكن الشعور عامله الاساسي او غرضه ، لان الشعور الانساني ذاته متصل بالفكر اتصالا وثيقا في المركب العجيب الذي نسميه النفس . واعتقد انه يصح في الشعر ، الى حد ما، ما قلته في الموسيقى واجريته على لسان بطل قصة الفتها سنة ١٩٣١ بعنوان « فاجعة حب » وطبعتها في بيروت مع قصة « عيد سيدة صيدنايا » سنة ١٩٣٢ ، وهو يختلف عن نوع المشابهة بين الشعر والموسيقى الذي اورده شفيق معلوف في كتابه الى عمه . اليك القول المذكور وهو بشكل حوار ومداولة ووصف روائي :

« كنا مرة مجتمعين في حلقة من الاصحاب فـاخذنا نتحدث في كل علم وفن حتى تطرقنا اخيراً الى الموسيقى . وكان بيننا من شب ولم يسمع سوى الالحان الشرقية الشائعة عندنا التي يسمونها خطأ « الالحـــان العربية » ، واذا كان قد سمع بعض الانغام الغربية فهو لم يعبأ بها ولم يحاول فهمها . وكان آخرون ممن سمعوا الالحان الشرقية والانغام الغربية ووقفوا على ما في هذين النوعين من الموسيقى من فن وافتنان . فقدم هؤلاء الانغام الغربية على الالحـان الشرقية لرقي تلك وغناها في التعبير عن الحياة العاطفية ولفقر هذه من هذه الوجهة ووقوفها عند

حد التعبير عن الحالات الاولية . وتعصب اولئك ، ولعل تعصبهم من باب الشعور القومي غير الناضج والتمسك بمبدأ المحافظة ، للالحان الشرقية . وهذا شيء طبيعي ، فالذين يفهمون لحنا موسيقيا واحدا فقط يفضلونه على كل لحن ونغم غيره .

« وكان من وراء ذلك ان الجدل في هذا الموضوع احتدم بين الفريقين وطال امره حتى خشيت ان يؤول الى تباغض وشحناء ، كما جرت العادة عندنا نحن السوريين الى هذا اليوم ، فاننا قليلا ما نتناقش في امر بقصد التوسع في المعرفة والفهم ، وتبين وجه الصواب ووجه الخطأ . الا اننا لم نبلغ هذا الحد في هذه المرة لان الفريقين المتجادلين قررا ان يستفتيا سليما في الامر بصفة كونه خبيراً في نوعي الموسيقى الشرقي والغربي ، ومحباً للانصاف والحقيقة . فسأل سليم احد المتشبثين بافضلية الموسيقى الشرقية المحافظة ، واسمه بهيج ، قائلا :

« أتدري ، يا صاحبي ، لماذا وجدت الموسيقى ؟ »

« فاجاب بهيج بلهجة الموقن : اجل وجدت الموسيقى لتكون لغة العواطف » .

«قال سليم — « لو كنت خبيراً بالموسيقى لما جزمت بهذا التحديد الذي يجرد الموسيقى من ثلثي مزاياها على الاقل »

« فهتف الاربعة دفعة واحدة : « ثلثي مزاياها ؟ ! »

« سليم : « نعم ، ثلثي مزاياها »

« بهيج : « اذن ، كيف تحددها انت ؟ »

« سليم : « اني احددها باطلاقها من كل تحديد ، فانك تستطيع ان تعرف الكثير من مزايا الموسيقى ولكنك لا تتمكن من حصرها . ليست

الموسيقى لغة العواطف فحسب ، بل هي لغة الفكر والفهم ايضاً . انها لغة النفس الانسانية بكل ظواهرها وبواطنها . وان شئت فقل ان الموسيقى تتناول الميول الاولية والعواطف والحالات النفسية على انواعها والاصوات على اختلافها والشعر والادب والفلسفة . ومن هذه الوجهة لا يمكنك ان تقسم الموسيقى الى قسمين ، شرقي وغربي ، وانما يمكنك ان تميز بين الاساليب الشرقية والاساليب الغربية في التعبير عن المعاني النفسية المقصودة من الموسيقى ، وبين اصناف هذه المعاني ، عينها . فمتى كانت الموسيقى الغربية تعبر عن العواطف والحالات النفسية التي تعبر عنها الموسيقى الشرقية عينها امكنك فهمها بكل سهولة وان اختلف اسلوبها . فيتضح لك مما تقدم ان وجه الفرق في ما تسمونه الموسيقى الشرقية او العربية والموسيقى الغربية ليس في اساس الموسيقى ، فلا يوجد نزاع قط من هذا القبيل ، بل في المعاني التي يقصد التعبير عنها عند الشرقيين وعند الغربيين وفي الاساليب المتخذة لبلوغ هذا الغرض ، وان الفرق الذي تجده بين اساليب الموسيقى الشرقية ونظائرها الغربية ليس الا مجرد تنوع يتبع حالات نفسية خاصة . ويمكنك ان تجد البرهان القاطع على صحة هذه النظرية في العلوم الطبيعية والنفسية وفروعها فان هذه العلوم تثبت بما لا يقبل الرد ان الطبيعة البشرية واحدة في جميع العناصر والشعوب وان تعددت الامزجة . ان عواطف الحب والبغض والرقة والقسوة والسرور والحزن وبواعث الطرب والتأمل واللهو والتفكير والطموح والقناعة وما ينتج عنها جميعها من ثورات وانفعالات وتصورات نفسية تقصر الكلمات عن وصفها كل هذه واحدة في جميع الامم في الشرق والغرب ولا فرق بينها الا بمقدار تنبه النفوس وارتقائها وشدة شعورها او خمولها وانحطاطها

وعدم شعورها . فالقوم الذين لا تزال نفسيتهم في دورها الابتدائي او كانت محجوزا عليها بحكم العادات والتقاليد العتيقة ، الناتجة عن تلك النفسية ، كانت موسيقاهم ابتدائية ايضاً . وهي في هذه الحال لا تعبر عن العواطف التي هي شيء مشترك بين الانسان والحيوان ، كالشهوات الجنسية التي تمثل معظم عواطف هؤلاء القوم . وبعكس ذلك القوم الذين تحررت نفسيتهم وارتقت فان موسيقاهم تعبر عن عواطف تسمو على الشهوات الجنسية وتخيلات تعلو عن الاغراض الحيوانية الدانئة ، اذ لم يعد مطلبهم في الدنيا مقتصراً على « وصال الحبيب » بل اصبح مطلباً اعلى يرفع الحب نفوسهم اليه ويشحذ عزائمهم لتحقيقه مولدا في نفوسهم من العواطف السامية والافكار والتخيلات الكبيرة مالا يستطيع فهمه من همه وصال الحبيب وعلى الدنيا السلام . هذه هي العواطف والتصورات والافكار التي تعبّر عنها موسيقى امثال بيتهوفن الذي بلغ في الفن الموسيقي حد الالوهية لان معزوفاته استغرقت اسمى ما تصبو اليه النفس البشرية في الحياة . انه كان يشعر بعواطف وآمال واميال جميع اخوانه البشر حتى كأن نفسه كانت مؤلفة من كل النفوس . وهذه هي صفة الموسيقي النابغة كما هي صفة الشاعر والاديب النابغة . انظر الى ما تعبر عنه معزوفات هذا الموسيقي الخالد . خذ مثلا ، سنفونيته السابعة التي اجاب بها على مدافع السفاح نابوليون بتيار من الانغام تحول الى تيار من العواطف البشرية الطالبة الحرية الثائرة على الظلم والاستبداد لا يزال جاريا وسيظل جاريا ابد الدهر ! انظر الى معزوفاته الاخرى (كسنفونيته الخامسة المعّبرة عن الصراع بين عوامل الفناء وعوامل البقاء — بين الموت والحياة ، وانتصار هذه بفتوتها على ذاك بهرمه) ومعزوفات غيره من الموسيقيين الخالدين فهي لا تقف عند رفع العواطف الروحية فحسب الى مراتب السمو ، بل تتعداه الى رفع الافكار والتصورات العقلية ايضا . لا ،

يا صاحبي ، لم توجد الموسيقى لتكون لغة العواطف الاوليـة التي وقفت عندها الموسيقى التقليدية الشائعة بيننا ، بل لغة النفس بجميع مـــا فيها من عواطف وافـكار »

« بينا كان سليم يتكلم كان الاصحاب جميعهم مصغين كل الاصغـاء . فقد كانت هذه المرة الاولى التي يسمعون فيها حديثا من هـذا النوع . وبعـد صمت ظهر في اثنائـه ان الرفقـاء كانوا يجتهدون في فهـم خطـــاب سليم ويحـاولون ادراك المـدى البعيد الذي بلغه قـال بهيج : « مـارأيك اذن في موسيقانا ؟ »

« سليم : « الحقيقة يا صديقي ، انه ليس لنا موسيقى تعد نتاج نفسيتنا نحن السوريين من حيث اننا قوم لنا مزايا خاصة بنا . اما الالحان الشائعة بيننا فليست مما نشأ من نفسيتنا بل هي مزيج من نفسيات اقوام مختلفة . واذا كان فيها ما يعبر عن جزء يسير من عواطفنا ومزاجنا فهي تقصر تقصيرا كبيرا عن استيعاب ما في اعماق نفوسنا من شعور يستغرق ما في الكون من عوامـــل ومؤثرات نفسية وما في صميم عقولنا من تصورات وتأمـلات تظهر فيها حقيقة طبائعنا ومواهبنا . ان الالحان التي نسمعها كل يوم ليست خارجة من نفسيتنا بل هي مما دخل على تقاليدنا وعاداتنا . انها الحان تقليدية فحسب »

« بهيج : « اذن انت تفضل الموسيقى الغربية »

« سليم : « قلت انه لا تفضيل في الموسيقى . انما اذا كنت تريد معرفة رأيي في الفرق بين موقفنا من الموسيقى وموقف اهـــل الغرب منها فـاني اصارحك ان شعوب الشرق ، خلا الروسيين ، اذا كانوا يحسبون شرقيين ، قد عدلوا عن الاسس الموسيقية الى الالحان الموضوعة ، او هم قـد اقتصروا في الموسيقى على طائفة من الالحـان لا يجدون عنها محيـداً . وهذا كان شأن

الغرب ايضاً ، الا انه لما ارتقت نفسيات البشر وعقلياتهم اضطرت الموسيقى الى مجاراة هذا الارتقاء لكي تعطي المثل الصحيح للعواطف والافكار الجديدة التي لم تعد الالحان الموضوعة تكفي للتعبير عنها . وقد سبق الغربيون اهل الشرق الى ادراك ذلك فأحدثوا في الموسيقى تطوراً خطيراً ، اذ انهم عدلوا عن الالحان الى الاصوات المفردة التي هي اساس الموسيقى فرتبوها وادخلوا على الموسيقى الادب والفلسفة ، فضلا عن الشعر ، وهكذا استتب لهم اظهار مكنونات النفس الراقية بواسطتها . وهذا ما يجب ان يحدث في سورية وفي كل قطر فيه شعب حي في نفسيته وعقليته . ان التقاليد القديمة المستعارة قيدت نفوسنا بالحان محدودة ابتدائية قد اصبحت حائلا بيننا وبين الارتقاء النفسي . ان في فطرتنا ونفوسنا شيئاً اسمى مما تعبر عنه هذه الالحان الجامدة ، شيئاً اسمى من الشهوات او العواطف الاولية . ان في انفسنا فكراً عاطفياً وفهماً عاطفياً يتناولان التأملات العميقة في الحياة والرغبة الشديدة في تحسينها من وجوه متعددة : اجتماعي ، قومي ، روحي ، انساني ويدفعاننا نحو مطلب اعلى أليق بوجودنا يحتاج تحقيقه الى انواع من الموسيقى غير الالحان المستعارة الموضوعة لحالة او حالات نفسية محدودة معينة كحالة الحزن اوحالة التدله في الغرام ، فان لحناً وضع لحالة من هذا النوع لا يصح ان يستعمل في حالة اخرى تختلف عنها كل الاختلاف كحالة غضب النفس وثورتها على الاستبداد والظلم او حالة الجذل والابتهاج او حالة التأمل . بل ان لحناً وضع لحالة نفسية منذ نحو الفي سنة لا يمكنه ان يعبر عن هذه الحالة بعد مرور زمن طويل اكتسبت فيه النفس من الاختبارات ما رقى شعورها واكسب الحالة النفسية المقصودة معاني جديدة تحتاج الى انغام جديدة لوصفها .

فاذا كنا نريد ان نحيا نفسيتنا حياة راقية تقربنا من اكناف السعادة وجب علينا ان نحررها من ربقة الالحان التقليدية التي لا تغذي الا العواطف الدنيا ، وان نعود الى الاصوات نفسها فنسلط عليها فكرنا العاطفي وفهمنا العاطفي ونستخرج منها موسيقى تغذي كل عواطفنا وكل تصوراتنا وافكارنا وتظهر بواسطتها قوة نفسيتنا وجمالها »

« لما اتم سليم عبارته التفت الى الرفقاء فوجدت بهيجاً واصحابه قد وقفوا على افكار جديدة لم يكونوا قد سمعوا مثلها من قبل . ثم ان احدهم نظر الي وخاطبني قائلا : « ما رأيك ياسيد ، في ما يقوله السيد سليم ؟ »

« قلت : « اني اوافق على جميع ما قال واتخذ من حكمه في الموسيقى حكما في الادب . انظر الى شعرائنا كيف يحدون العيس في منظوماتهم ، وما هم في ذلك الا مقلدين ، لان حدي العيس ليس من شؤون شعبهم ولا من مظاهر تمدنهم ، والى كتّابنا كيف يتكلمون عن الغبراء والبطحاء وبلادهم جبلية وسهلية خضراء . ان التقليد قد اعمى بصائرهم عن الحقيقة ، واني لاعتقد انه لا بد من القيام بجهود جبارة قبل ان تصبح النهضة الادبية معبرة عن حياتنا القومية ولكني موقن بانه سيجيء اليوم الذي يتحقق فيه ذلك وتصير الروحية والعقلية السوريتان ، الغنيتان بمواهبها الطبيعية ، معينين ينهل منهما الادباء واهل الفنون والعلماء والفلاسفة الذين يخرجون من صميم الشعب السوري »

« وبعد صمت قصير انصرفنا وقد رسخ حديث سليم في ذهني ولم تزده الايام الا رسوخاً .

« ان الحديث المتقدم يوضح روح التجدد التي ملاءت حياة صديقي سليم وارادت ان تتناول عصراً وامة . والذي اعلمه ان سليماً كان قد

ابتدأ ينظم سنفونية في انتهاء عهـــد الخمول وبزوغ شمس يقظـــة الشعب السوري . والصدق يوجب عـلي ان اروي ان سليماً كان يعتقد ان نهضـة الشعب السوري ضرورية للتمدن لانه كان موقنـاًمـن مزايا الحرية والسلام والمحبة المتـأصلة في قومـــه وهو لم يكن يرمي مـــن وراء ذلك الى غرض سياسي ، بل الى ما هو اعظم شأناً واكثر فـائدة من الغرض السياسي . انـه كان يرى الفورة السياسية امراً تافها اذا لم تكن مرتكزة عـلى نفسية متينـة يثبتها في قلب كل فرد ، سواء كان رجلا ام امرأة ، شابا ام شابـة ، ادب حيّ وفن موسيقي يوحد العواطف ويجمعها حول مطلب اعلى حتى تصبـــح ولها ايمان اجتماعي واحد قـائم على المحبـة ، المحبـــة التي اذا وجدت في نفوس شعب بكامله اوجـدت في وسطه تعـاونا خالصاً وتعاطفاً جميـــلا يملاء الحياة آمالاً ونشاطاً . حينئذ يصبح الجهاد السياسي شيئاً قابل الانتـاج واما الوطنية القـائمة على تقاليد رجعيـة رثة فهي شيء عقيم ولو ادت الى الحرية السياسية »

انظر الان ، بعد مرور احدى عشرة سنة ، في هذا الاستعراض لحالة فن الموسيقى وحالة الادب في بيئتنـا ونوع النفسية المسيطرة على مجموعنـا ، الموروثة من ازمنة السقوط تحت مطارق الفتوحات البربرية وامواج النفسيـة الشرقية ، فارى اني قد صورت حالة التخبط في المواضيع الفنية والادبية السائدة في اوساط متنورينـا واوضحت طريقة الخروج من تلك الحالة . واني اوافق الان على مـا صورت في القصة وارى انه ينطبق عـلى ما اتناوله في البحث الحاضر من التخبط الادبي والصراع الفكري في الادب وعـلى ما اصف به الان الادب عامة والشعر خاصة . وارى فيه ، عدا مـا تقدم ، صلب الموضوع .

قلت ان المشابهة بين ما قلته في الموسيقى وما قلته واقوله في الشعر تختلف عن المشابهة التي اوردها شفيق معلوف في كتابه الى عمه حيث يقول : « ان لي رأياً آخر في الشعر . فهو ، في عرفي ، ذلك الشعور النابض يصور للناس نفوس الناس . ولا تتعدى فائدته — في احايين كثيرة — منفعة يصيبها المرء لدى سماع قطعة موسيقية جميلة ، مطربة كانت ام مشجية » فهذه المشابهة بين الشعر والموسيقى لا ترفع الشعر ولا الموسيقى ولا تعطيها المنزلة السامية التي لها في النفس التي سمت بشعورها وادراكها وانفلتت من الحدود الضيقة في الفكر والشعور . انها من ملازمات النظرة القديمة الى الحياة والفن ومن نتائج تأثير البيئة ونوع الثقافة اللذين حددا للشاعر المذكور الشعر والموسيقى تحديداً مضنكا .

اوردت في ما سبق من هذا الدرس رأيي في ضعف تعبير شفيق معلوف عن الشعر . وكان ايرادي رأيي هناك مقتضبا لم احلل فيه غير قوله « يصور للناس نفوس الناس » . ولذلك ارى وجوب اكمال التحليل لاستخراج الفائدة الكبرى . واتناول « تصوير النفوس » فاقول ان هذا التصوير لا يمكن ان يحدث بواسطة « الشعور النابض » . واذا حدث تصوير للنفوس بواسطة الشعور المذكور جاء تصويرا مشوها او ناقصا . والارجح ان يكون حينئذ تصويرا لشعور الشاعر ، على نسبة وعيه ، بنفوس الناس وما يراه في نفوس الناس . وقد يكون وعي الشاعر كاملا وقد يكون ناقصا . وفي كل حال فالوجهة الوصفية بواسطة الشعور وحده هي ذاتية بحت (سبيكتيف) وضيقة جداً لانها تكون منحصرة في نفس الشاعر وغير متناولة نفوس الناس كما هي نفوس الناس ولا اشواقها الى ما تحب ان تكون . اما وصف هذه النفوس كما هي فيحتاج الى مقدار غير يسير من علم النفس وعلم الاجتماع والفكر الذي يجب ان يلازم

الشعور او يتقدم عليه او يقوده في هـــذا المسلك الوعر . فتخصيص الشاعر بالعناية بنفوس الناس ووصفها بواسطة «الشعور النابض» الذي يوحي الاندفاع مع السجية اكثر مما يوحي التمعن في الدقائق النفسية والقضايا التي تتعرض لها النفس ليس تخصيصا موفقا ، ولا يلزم الشاعر، بوجه عام ، وصف نفوس الناس ليكون شاعرا . فقد يصف الشاعر عناصر الطبيعة او بعضها او مظهراً من المظاهر الطبيعية او وقائع حربية او غيرها ويكون شاعرا . اما الشاعر الذي « يصور نفوس الناس » ويعنى بالشؤون النفسية فهو ليس اي شاعر او كل شاعر ، بل شاعراً ذا صفة خاصة ومنزلة منفردة . وكذلك الشاعر الذي يتناول القضايا الفلسفية الوجودية او الغيبية .

ان خليل مطران شاعر شاعر من غير ان يدخل المسائل النفسية . ولعله اضعف ما يكون حين يدخل هذه المسائل . فقصيدة « نيرون » قطعة شعرية خالدة سما فيها خليل مطران على مستوى عصره (في سورية ومصر) وعلى ما تقدمه من عصور ادب اللغة العربية . ولعل اضعف ما في هذه القصيدة ما تعلق منها بالمسائل النفسية . وشفيق معلوف شاعر شاعر في « الاحلام » ولم يصور فيها نفوس الناس وفي « عبقر » وفيها قليل مـــن القضايا النفسية وصورها واوصافها او هي معدمة مـــن هذا القبيل . ولا نجد في « عبقر » « الشعور النابض » الذي نجده في « الاحلام » الا في مقاطع خاصة تدل ميولها البيولجية على عدم النضج النفسي .

ما حدد لشفيق معلوف تعريف الشعر حدد له ادراك سمو الموسيقى او عمقها . فتمثيله فائدة الشعر بانها « لا تتعدى » فائدة سماع قطعة موسيقية جميلة « مطربة كانت ام مشجية » جعله لا يرى للموسيقى غير ناحيتي الطرب والشجا . وهـــذه هي الموسيقى المحـــدودة ، الضيقة ، الاوليـــة . هـــذه هي

الموسيقى في نظرة الى الحياة ساذجة ، جامدة ، غير جديرة بالارتقاء النفسي ومجد المثال الاعلى الخالد .

الطرب والشجو وحدهما هما من ملازمات الحياة الفقيرة في الثقافة النفسية وفي الفن والمناحي الروحية . وقد رأى القارىء مما قدمت نقلاً عن قصة « فاجعة حب » ان فائدة الموسيقى لا تقتصر على الطرب والشجا الا حيث جمدت الموسيقى عند حد هذين الشعورين الاولين بجمود حياة البيئة روحياً ومادّيا . فالموسيقى الراقية تحمل النفس على تأملات فكرية وثورات روحية فضلا عن مختلف العواطف الفردية التي هي من شؤون الحياة البيولجية او الجنسية . ولكن هذه الموسيقى الراقية هي وليدة عصر راق او نتاج مخيلة مبدعة قدرت بذاتها ان تتصور عالماً من الافكار والتأملات والشعور في امواج من الانغام والالحان تحتاج بدورها الى عصر يفهمها . وهذه المخيلة المبدعة يجب ان تكون متأثرة باحساس بقضايا الحياة عال جداً لا يكون ،في الغالب ، او لا يجب ان يكون ، ابداعاً خاصاً بالموسيقي المبدع .

لاشرح هذه النظرية : ان واغنر موسيقي مبدع ولا شك . وهو في الموسيقى نسيج وحده . ولكن موسيقاه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باحساس الحياة المستمد من الاساطير الجرمانية وبالقضايا النفسية والفلسفية المنطوية عليها حياة ابطال تلك الاساطير . وشعور واغنر نفسه مستمد من نظرة النهضة الالمانية الى الحياة والكون والفن . ليس واغنر مبدعاً للنظرة الالمانية الى الحياة ولا واضعاً للاساطير الجرمانية . ولكنه مبدع للموحيات والامواج الموسيقية المعبرة عن النظرة المذكورة ولالوان الشعور الفلسفي الذي احسه حين قرأ تلك الاساطير وفهم منها ومن نهضة شعبه المزايا

القومية او الجنسية الجوهرية التي جعلته يرى ويبرز تلك المثل العليا الفلسفية التي نراها تمثيلا ونسمعها الحاناً واناشيد في « ولكيريا » و « سيقفريد » و « ذهب الرين » و« تانهويزر » و « لوهنقرن » و « واساتذةالغناء » و«ترستان وايزلده » وغيرها . فكان واغنر شاعراً روائياً ، لانه نظم قصائد رواياته الموسيقية وكان موسيقياً روائياً فلسفياً لانه الف الحان وانغام تلك الروايات الخالدة باسبابها الشعورية والفكرية المعبرة عن نظرة الى الحياة عالية جداً . ويصعب على الدارس المفكر تصور وصول واغنر الى ما وصل اليه من غير اتصاله بخطط النفس الالمانية وتأثره بنظرة الى الحياة عالية واحساس عميق بقضاياها ، ومن غير نشأته ضمن العوامل النفسية التي اعطت المانيا اتجاهها الصعودي .

واذا ذهب احد من ادباء العصر السوري الهالك الى « اوفرة » وسمع الحان واغنر افيسر بها او يطرب او يشجى ؟ لا اظن الا انه يعافها ، لانه لا يفهمها ولا يفهم موحياتها ولا يدرك قضاياها . وبعد فليس في قصائد واغنر الموسيقية من الطرب والشجا الا قليلا واكثر واهم ما فيها تأملات فكرية واتجاهات فلسفية لا يقدر على تتبعها من غرضه الطرب او الشجو ومن لا يجد الموسيقى الا تعبيراً عن شعور الطرب وشعور الشجا في مجال ضنك من الحياة تغلب فيه النزعة البيولجية النزعة النفسية . ففائدة قطع موسيقى واغنر لا تقتصرعلى احداث جذل او انبساط او شجا فيزيائي الشعور اوبيولوجي النفسية ، بل تتعدى ذلك الى القضايا الاساسية ، التي تواجهها النفس الانسانية الراقية ، المركبة ، بكل ما فيها من افكار وشعور ومطامح وميول ومثل وما تتعرض له من الصراع العنيف ، الخفي او المعلن ، بين الاجمل والاقبح وبين الاسمى والاسفل وبين الانبل والارذل .

لا يكون موقف اديب الجمود والخمول السوري تجاه موسيقى بيتهوفن او بخ او موسرقسكي او ويبر او بروكنر او تشايكوسكي او بردين او رمسكي – كرزاكف او ستراونسكي او شوفين او برليوز او دبوسي او سباليوس او دورياك او شوبرت او غيرهم ، غير موقف المستغرب اوالمستهجن . فمنذسنين سمعت كاتبا صحفيا سوريا في سان باولو ، البرازيل ، ينظر الى نفسه نظره الى اديب كبير ، يقول انه دخل مرسح « المونيسيفال » في المدينة المذكورة ليسمع احدى سنفونيات بتهوفن الطائرة الصيت فلم يطل به المقام حتى عاف السماع وخرج من المكان وهو في حيرة من بلاهة الناس الذين يطيقون الجلوس بدون ملل نحو ساعة او يزيد لسماع موسيقى لا طرب فيها « لطيب العناق على الهوى » ولا شجا فيها « لطول ليل الصب » ؛ ولشدة سأم « الاديب الكبير » المذكور مما سمع من هزيز ودوي وزمزمة وحفيف وكشيش وقرع ، وليفرج كربه طلب من صاحب المكتبة السورية التي كان يروي فيها قصته ، ان يسمعه بعض اناشيد المغنية المصرية ام كلثوم المطربة ، المشجية ! ولم يكتف بذلك بل صار ينادي صديقاً له ماراً بالمكان ويقول له : « تعال لنموت بهذا الغناء » وهو لا يدري انه يقول الحقيقة كلها بعبارته هذه التي استعملها لمعنى آخر !

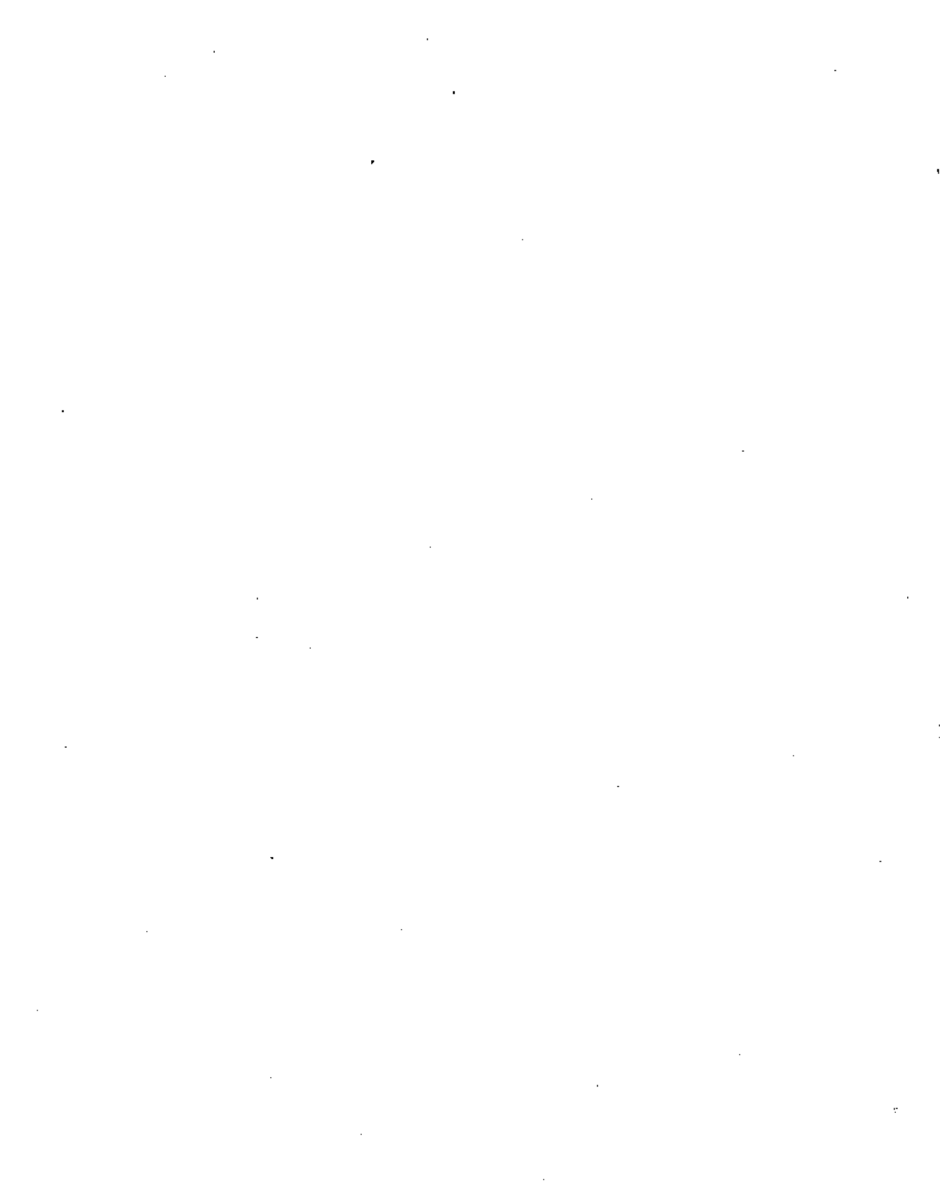
مع ان الشعر اضيق مجالا من الموسيقى للتعبير عما تشمله النفس الانسانية من فكر وتصورات وشعور ومنازع ، فان ما حدد به شفيق معلوف الموسيقى وفائدتها جعل الشعر نفسه بالمشابهة اضيق مجالا واقرب قعراً مما هو او مما يمكن ان يكون بعد ان تنجلي لنفس الشاعر نظرة أعلى في الحياة الفردية والحياة الاجتماعية ومطالب اسمى للجمال النفسي واحساس ادق باغراض الوجود وجوهره المستقر في النفس ضمن الوجود وليس بعد الوجود ولا قبله . فاني اعتقد ، بطبيعتي

السورية ، ان كيان النفس هو في الوجود ولاجل الوجود ، مهما كانت طبيعة هذا الوجود في ذاته ، ومهما كانت علته ؛ وليس لاجل « الفناء » في « وحدة الوجود » .

لا اعتقد ان بلوغ هذه المرتبة يتم للشاعر السوري او غيره بقراءة سفر اشعيا من التوراة اليهودية ولا بتقوية الاتصال « بالادب القديم » الذي هوتعبير غامض في ذاته ، ولاباحسان الاداب الاجنبية القديمة التي اوجدت الادب الاجنبي الحديث ولا بتوشية الكتب واتقان الطباعة ، بل بالاتصال بمجرى حياة يجد فيه الشاعر نفسه ونفس امته ومجتمعه وحقيقة طبيعته وطبيعة جنسه ومواهبها ، وبادراك عمق النظرة الى الحياة والكون والفن الملازمة لهذا المجرى الذي يزداد قوة مع الايام .



مِنَ الظلمة الى النور



مِنَ الظلمة الى النور

بعد ظهور امر الحزب السوري القومي الاجتماعي وحصول الاختبارات الواسعة لاهمية عقيدته وتعاليمه القومية الاجتماعية ، التي تفتح عهدا وتاريخا جديدين وتجلو نظرة الى الحياة والكون والفن جديدة ، ووضوح عظم المهمة التي يقوم بها هذا الحزب قال لي الامين جورج عبد المسيح ، وهو من رجال المجلس الاعلى ومن اشد رجال الحزب اخلاصا واقداما ومن خطباء الحركة القومية الاجتماعية وكتابها واداريها :

« لو كنت قوميا قبل ابتدائي دروسي النهائية ، اذن لكنت استفدت من دروسي اكثر كثيرا مما استفدت ، اذ كنت عرفت كيف يجب ان ادرس — واظن اني اعبر عن رأي غيري ايضاً »

الامين عبد المسيح كان طالبا في الدائرة الاقتصادية في الجامعة الاميركانية . وكان في السنة النهائية حين قبل فكرة القومية الاجتماعية . ولم يستوعب اهميتها ويفهم خطرها وبعد مراميها وقضاياها الا بعد ان اجتازت هذه الفكرة مرحلة واختمرت بالاختبار والشروح ومعالجة المسائل التي اعترضت نشوءها ونموها . وكان لدروسه المدرسية نصيب في شغله عن درس موضوع التعاليم الجديدة . فانهى دروسه على اساس النظرة الفردية اللاقومية الرامية الى النجاح الفردي البحت بلا مبالاة بشيء آخر . ولكنه بعد ان سار شوطا في الحركة القومية الاجتماعية اخذ يستعيد بعض النظرات ويدقق فيها وصار يفهمها فهما جديدا .

لم يكن الامين عبد المسيح وحيدا في هذا الشعور . فالامين فخري معلوف ترك الاشتغال في بواطن النجوم بعد ان صحت به : « اتشتغل بفحص بواطن النجوم وانت لا تدري لمن تكون الارض التي تحت قدميك غدا ؟ » . وبعد ان استوعب الفكرة القومية الاجتماعية قال لي مرة « الان صرنا نفهم مقالاتك في المجلة » وهي المقالات التي كتبتها لاعداد « المجلة » التي استأنفت اصدارها في بيروت سنة ١٩٣٣ ولم يصدر منها سوى اربعة اعداد ، اذ اضطررت لايقافها من اجل صرف كل عنايتي الى تنظيم الحركة القومية التي كانت تحتاج الى انشاء وتأسيس كل امر من امورها ، اذ لم يكن قبلها شيء اداري او اجتماعي او سياسي او ثقافي او دستوري او مناقبي يصح اعتماده لنوع هذه الحركة الجديدة .

مثل قولي الامين عبد المسيح والامين معلوف سمعت من غيرهما . والامين فخري معلوف غيّر اتجاه دروسه فدرس بعض الاقتصاديات والسياسة وهو يعلم في الجامعة ثم انتقل الى الفلسفة فتخصص فيها وقد عرف ، على ضوء النهضة القومية الاجتماعية ، ما يدرس وكيف يدرس (من المؤسف ان يكون حدث لفخري معلوف مؤخراً انحراف نفسي ظاهر نحو القضايا الغيبية واللاهوتية) والذين ادركوا خطورة هذه النهضة وشعروا بعظم حقيقتها وهم بعد في بدء دروسهم النهائية او قبل بلوغها ظهرت فاعلية مبادىء النهضة في دراستهم . وجميع هؤلاء والذين صقلت التعاليم القومية الاجتماعية ثقافتهم وجلت وعيهم وايقظت مواهبهم هم الان قوى روحية كبيرة في هذه الحركة الباعثة امة عظيمة من مرقدها .

في اواسط سنة ١٩٣٥ ، قبل اعتقالي ومعاوني في ادارة الحركة السورية القومية الاجتماعية ببضعة اشهر ، انضم الى هذه الحركة شاعر كان اسمه قد ابتدأ

يدور على الالسنة في اوساط سورية الادبية وخصوصاً في لبنان . هو سعيد عقل ناظم ملحمة « بنت يفتاح » . وقعت في يدي نسخة من هذه الرواية الشعرية فقرأت بضعة مقاطع منها فاحسست فيها شاعرية ممتازة جديرة بتناول قضايا الحياة والنفس . ولكنني لم اطق قراءتها كلها لاني وجدتها تخدم موضوعا غريبا عن المواضيع السورية ، مختصا باليهود اعداء سورية . رأيت موهبة شاعر سوري جدير بالتعبير عن النفس السورية ، ولكنها موهبة خارجة عن المواضيع السورية وعن خطط النفس السورية . وهي تخدم اتجاهات ومثلا في انتصارها انكسار لسورية ومثلها العليا ومطامحها وقواها . ومع كل الشاعرية الجيدة الظاهر في الملحمة لم اجد فيها ما يمكن ان يفتح للادب السوري مدخلا جديداً وان يحدث فيه تغييراً او تجديداً ، على الاقل التغيير او التجديد المنتظر ان يجعل سوريا في مصاف الامم التي لها ادب حي جدير بالبقاء وباحتلال مركز عالمي .

رأيت في « بنت يفتاح » مظهراً من مظاهر « ادب الكتب » الذي عرضت له في مقال نشرته في « المجلة » في بيروت باسم مستعار وبعنوان «ادب الكتب وادب الحياة » وقصدت ان الفت فيه النظر الى ان ما نحتاج اليه هو ادب الحياة ، اي الادب الذي يفهم حياتنا ويرافقنا في تطوالنا ويعبر عن مثلنا العليا وامانينا المستخرجة من طبيعة شعبنا ومزاجه وتاريخه وكيانه النفسي ومقومات حياته وهي من الامور التي شغلت اكبر قسم من تفكيري في البعث القومي واسبابه ، ورأيت ان تركيز الادب عليها غير ممكن الا بالاتصال بنظرة الى الحياة والكون والفن جديدة تجسم لنا مثلنا العليا وتسمو بها وتصور لنا امانينا في فكرة فلسفية شاملة تتناول مجتمعنا كله وقضاياه الكبرى المادية — الروحية من اجتماعية واقتصادية ونفسية وسياسية

وفنية . وقد عبرت عن هذا الرأي ، بطريقة اخرى ، في ختام شرح مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي بقولي : « ان غـــاية الحزب السوري القومي هي فكرة شاملة تتناول الحياة القومية من اساسها ومن جميع وجوهها . فهي تحيط بالمثل العليـــا القومية وبالغرض مـــن الاستقلال وبانشاء مجتمع قومي صحيح . وينطوي تحت ذلك تأسيس عقلية اخلاقيـــة جديدة ووضع اساس مناقبي جديد » . بهذه النظرة رأيت امكان انشاء ادب جديد فيـــه كل عوامل التجديد ودوافع البعث . فالادب الذي يخدم هـــذه الغاية او اية غاية مماثلة لها هو « ادب الحياة » الذي عنيته . هو الادب الذي يكشف عن عظمة مطامح نفسية هامة وسمو مراميها . هو الادب الذي مهمته ان يكون « منارة للجماعات » وليس « مرآة لها » . انه ادب النوابغ والعباقرة الذين اذا فات بعضهم ان يكونوا مؤسسين للفلسفة والنظرة الى الحيـــاة الجديدتين فلا يفوتهم ادراك المثال الاعلى الذي تشتملان عليه والنفسية الجديدة التي تقتضيانها فيحملون النظرة الجديدة الى الحياة والكون والفن ويقيمون بهـــا ادباً جميلاً خالداً لانه يحمل عوامل حياة جديدة بنظرتها وفلسفتها ورغباتها فيكون بذلك النهوض الادبي المساوق للنهوض السياسي المبني بدوره على وجود النظرة الفلسفية الجديدة في الحياة الانسانية وعواملها واغراضها الاخيرة .

لم تكن « بنت يفتاح » تنطبق على مرمى التجدد الروحي في سورية وعلى ما يرجى من الادب الجديد الذي كانت سورية تتوق اليه توقاً داخلياً ، لانهـا كانت بعيدة عن مواضيع الحياة السورية وغير متصلة بنظرة فلسفية يمكنها ان تستغرق امواج النفس السورية . فلم يستهوني موضوعها . وصور الجمال التي فيها بقيت غريبة وجامدة ، مع انها صور احساس سوري ضمن حوادث موضوع غريب معاكس لاتجـــاه الشعور السوري ، فرأيت ان الفت نظر الشاعر الى

مطاليب النهضة السورية في الادب فانتهزت فرصة زيارة قمت بها لمنفذية الحزب السوري القومي الاجتماعي للبقاع الشمالي في زحله ، بعد خروجي من السجن المرة الثانية سنة ١٩٣٦ ، لتنفيذ عزيمتي . كانت الدعاوات المفسدة قد لعبت دوراً هاماً في مديرية زحله ، في اثناء غيابي الطويل في السجن مرتين متواليتين مع فترة قصيرة بينهما . وكانت الاذاعة الشيوعية قد اخذت تعبث ببعض الرفقاء ومنهم سعيد عقل الذي وجدته شبه مقتنع بانه لا حاجة لنهضة قومية اجتماعية في سورية ، اذ العالم كما قال له بعض الشيوعيين ، على ابواب صراع بين الشيوعية والرأسمالية وايهما انتصر قضى على كل امل لسورية بتحقيق بعثها . فاوضحت للمتزعزعين مقدار الخطر على مجتمعهم وعلى انفسهم من تقلبهم في العقائد تقلب الاوراق تلعب بها الريح . وفي نهاية حديثي اليهم وجهت خطابي الى سعيد عقل خصيصاً ومدحت شاعريته الممتازة ولمته لعدم اهتمامه بالمواضيع التي هي من صميم الشعب السوري وتاريخه . وسألته هل لم يجد في تاريخ سورية من روائع المظاهر والمكنونات النفسية التاريخية ما يستهويه لاستخراج كنوزها واستئناف مجرى خططها السامية ؟ فلم يحر جوابا فاشرت عليه بقراءة كيفية بناء قرطاضة العظيمة وتحويلها الى قاعدة امبراطورية فسيحة الارجاء شديدة السطوة وحوادث تاريخها الموقظة الشعور والمنبهة الفكر ، او قراءة شيء من اي دور من ادوار تاريخ سورية القديم فيتمكن ، بفضل اتصاله بالنظرة السورية القومية الاجتماعية ، من ربط قضايا سورية القديمة بقضاياها الجديدة وايجاد موصل الاستمرار الفلسفي بين القديم السوري والجديد السوري القومي الاجتماعي واستخراج المثل العليا الفرعية والتفصيلية الجوهرية في الاخلاق والمناقب وابراز اجمل المظاهر النفسية واسنى المواقف المناقبية حسب الاحساس والتصور الملازمين لخصائص النفسية السورية . تركت هذا المعنى في ذهن سعيد عقل وخرجت من المكان

غير منتظر جوابا .

بعد سجني المرة الثالثة وفي اواخر سنة ١٩٣٧ او اوائل سنة ١٩٣٨ ، اوصل الي الامين فخري معلوف نبأ جعلني اشعر بموجة حرارة تجري في جسمي كله . قال لي الامين معلوف ان سعيد عقل يشتغل في قصيدة او ملحمة عنوانها « قدموس » السوري التاريخي الذي علم اليونان الاحرف الهجائية والكتابة وله قصص بطولة اسطورية جميلة ، وانه قد انجز قسما منها اسمعه بعض مقاطعه وانه يود ان يجتمع بي ليسمعني ما قد نظم . لم يمكني دور الجهاد العنيف الذي كنت فيه من تحقيق رغبة الرفيق سعيد عقل ولكني شعرت برغبة شديدة في الالتقاء به ليقرأ في ناظري تقديري العظيم وشكري (واني آسف ، بعد وقوفي على رواية « قدموس » من نظم سعيد عقل لاني لم اجد فيها ما كنت اتوقعه . فقد حاول المؤلف ان يصبغ الحقائق التاريخية والاساطير التقليدية بصبغة محلية ضيقة فاساء الى الاساطير والى الواقع التاريخي) .

سردت هذه الحوادث كما حدثت ، مفضلا اخذ المثل من الحاضر ومن شؤون تاريخ نهضتنا التي في مقدور كل مؤرخ ومحقق تمحيصها وسؤال افرادها الذين هم احياء وفي فتوة الحياة ، ليسهل ادراك نظريتي في كيفية نشوء ادب جديد حي بنشوء نظرة فلسفية اجتماعية جديدة صدرت عنها حركة سياسية واسعة تناولت حياة امة باسرها وامتد تأثيرها الى الامم المجاورة وامتزجت انغام موسيقاها الخاصة بالانغام الخاصة الصادرة عن امم اخرى تشترك في الارتقاء النفسي على الحان المجد المكتسب بانتصار الافضل والانبل والاعز على الاسوء والارذل والاذل ، ولفهم ضرورة النظرة الفلسفية الجديدة الى الحياة والكون والفن للتجديد الادبي او الفني .

ويصعب علي كثيراً ان اتصور ان مجرد قراءة تواريخ قديمة والاطلاع في الادب العربي القديم ودرس الادب الانترنسيوني الحديث يكفي لايجاد

نهضة ادبية فنية اصلية جديدة في سورية ومصر او في اية امة من امم العالم ، على وجه القياس . كل ذلك يحتاج الى الحافز الروحي المستمد من فكرة او عقيدة فلسفية جديدة في الحياة وقضاياها . وبدون هذا الحافز الروحي ، الذي هو شيء حقيقي ، لا وهمي ، لا يكون الادب سوى الوان تقليدية او استعارية باهتة لا نضارة لها ولا رونق ولا شخصية . فلا هو شيء جديد من الوجهة النفسية يطبع خصائصه على الحقب والاجيال ولا هو شيء قديم اصلي محتفظ بخطوط شخصية صحيحة تظهر قوتها في ملامحها الصريحة ، التي لا يتمالك الناظر اليها من الشعور بحقيقتها والاعجاب بقدرتها على البقاء وبجاذبية مزاياها الاصلية الخاصة .

لو كان الحافز الروحي المستمد من فلسفة العقيدة السورية القومية الاجتماعية اتصل بجميع رجال العلم والادب الذين انضموا الى هذه العقيدة ، قبيل ابتداء دروسهم الشبه اختصاصية لما كانت تلك الدروس ، ظلت هيا كل عارية ، ميتة لا حياة لها ولا حراك بها ، حتى جاءت النهضة القومية الاجتماعية بمبادئها وصيرت العلوم الميتة علوما حية فاكتست العظام لحماً ونبضت عروقها بدم الحياة الحار . وبدون الحافز الروحي الواعي لا تفيد كثيراً قراءة شكسبير وغوته ولا العودة الى سفر اشعيا ولا زيادة العلم ولا التعمق في الادب القديم .

ان العراك السياسي العنيف الذي اضطرت النهضة السورية القومية الاجتماعية للدخول فيه في جبهتين داخلية وخارجية ، قبل اكتمال نموها الطبيعي وقوتها ، حال دون حصول نتاج ادبي كبير ، واسع ، شامل . ولكن الحافز الروحي الذي ولدته هذه النهضة الحقيقية قد حرك عوامل الحياة والارتقاء في جماعات كثيرة وايقظ وجدان الوف الاحداث والطلبة في طول البلاد

وعرضها . والعقيدة آخذة في الاختمار والفكر قد أبتدأ يتبلور وسيجيء دور الانتاج الادبي والفني الواسع، الذي ينهض بالعصر الذي ابتدأ تاركاً في الحضيض العصر الذي اخذته حشرجة النزع (وقد جاء بالفعل هذا الدور وقد بدت طلائعه في عدة مؤلفات ذات قيمة) .

ان من نتائج حصول نظرة فلسفية جديدة الى الحياة والكون والفن، حدوث تغيير في مجرى الحياة ومظاهرها ، وفي اغراضها القريبة والاخيرة ، قبل كل شيء . وهذا ما حدث في سورية بوجود النظرة الفلسفية السورية القومية الاجتماعية ، ليس فقط في ما تعلق بالادب والفن ، بل في ما اختص بالاعمال والاخلاق والمناقب .

اتفق لي اكثر من مرة ان سمعت هذا القول من منضمين الى الحركة السورية القومية الاجتماعية مدركين : « لم نكن نعلم اي درك من الانحطاط الاخلاقي وضعف المناقب بلغ شعبنا ، الى ان دخلنا في الحزب السوري القومي الاجتماعي . الان اصبحنا ندرك الفساد المتفشي في امتنا وخطره على حياتها » .

حصول النظرة الفلسفية الجديدة الى الحياة والكون والفن يفتح آفاقاً جديدة للفكر ومناحي جديدة للشعور كما قلت آنفاً . وهنا نقطة الابتداء لطلب سياسة جديدة واشكال سياسية جديدة ولفتح تاريخ ادب وفن جديدين. فالادب والفن لا يمكن ان يتغيرا او يتجددا الا بنشوء نظرة فلسفية جديدة يتناولان قضاياها الكبرى ، اي قضايا الحياة والكون والفن التي تشتمل عليها هذه النظرة .

قد يسأل سائل : « هل من الضروري ان يكون التجديد الادبي خاصاً بمواضيع امة معينة فاذا تناول غيرها بطل ان يكون تجديداً وفقد قيمته الادبية ؟ »

جوابي : كلا ليس من الضروري . فالقيمة الادبية او الفنية ليست في هوية او « جنسية » الموضوع ، بل في القضايا التي ينطوي عليها الموضوع وفي كيفية معالجة القضايا وفي النتائج الروحية الحاصلة من هذه المعالجة . اما ذاتية الموضوع وزمانه ومكانه فلها ناحية شعورية خاصة وتقل اهميتها او تعظم على نسبة الغرض الخفي او المعلن الذي يسوق الموضوع اليه . على ان الاتجاهات الفكرية والشعورية تتأثر بالموضوع ، الذي اذا كان خاصاً « كبنت يفتاح » تعرض لفقد كل مبرر عام ولان يكون مخالفاً او مناقضاً للمثل العليا التي يبغيها الشعب المكتوب له الموضوع وللخطط النفسية التي تبرز بها مواهبه الجديرة بالاعجاب والبقاء . « فبنت يفتاح » مثلا ، تدخل في الادب اليهودي الخاص اكثر مما تدخل في الادب السوري ، لانها تتناول موضوعا يهوديا بحت تبقى اسبابه ونتائجه ضمن اطار المظاهر اليهودية وكذلك موحياته وجواذبه ، خصوصا والشاعر قد نظم القصة ولم يحصل له الوعي القومي ولم يدرك النظرة الجديدة الى الحياة .

ان الاعتماد على المواضيع الغريبة لا ينشيء ادبا شخصيا لمجتمع له خصائصه التي يمكن ان تضاف الى مجموعة الآداب العالمية ووحدات خصائصها . انه ليبرر تناول بعض المواضيع الاجنبية ، بعد نشوء الادب القومي او الخاص على نظرة الى الحياة والكون والفن واضحة . فيكون تناول تلك المواضيع بهذه النظرة او بهذا الوعي الذي له خصائصه فيكسبها من خصائصه ما يضيف اليه الوانا واشكالا متميزة . وفي هذه الحالة يجب ان تكون تلك المواضيع ذات اهمية خارقة ، تاريخية او حقوقية او انسانية ، قابلة الاشتراك بين الشعوب او بين بعضها . فشلر الف « عذراء اورليانس (اورليان) » في جان درك . ولكن ليست هذه الرواية الانتاج الذي اعطى شلر مقامه الادبي . وهي ليست سوى

جزء يسير مما كتب شلر . واهم ما كتب شلر ، على رأي جمهور نقـــاده ،هو « حرب الثلاثين سنة » في الحرب الشديدة التي جرت في المانيا بين الكاثوليك والفروتسطنت . فالموضوع الماني صميم وقد كتب فيه شلر نثرا ، ونظم فيه قصيدتين او ملحمتين عاليتين جـــداً ، الواحدة في بطل الكاثوليك ولنشتين والثاني في بطل الفروتسطنت قستاف ادلف . ومع ان هـذا الاخير هو ملك اسوج فقد تدخل في شؤون النزاع الديني الالمـاني ودخل في تاريخ المـانية . والموضوع وسياقـــه ابرزا شاعرية ممتازة وجدت نفسها في بيئتهـا وفي بيتها فوافق ذلك المثل البسيط « رب البيت ادرى بالذي فيـــه » . ففي وصف ولنشتين ، مثلا ، تظهر صورة حيـة ذات رواء نادر . واتمنى ان تكون صورة ابطال سورية في قصائد شعرائها ابهى سناء من قصيدة شلر في ولنشتين وجديرة مثلها باحتلال مركز عالمي ممتاز .

وهذه « عبقر » لشفيق معلوف . هي ايضـا قصيدة سورية في موضوع غريب . وساتناولها بتشريح لم يكن ان اتناول به « بنت يفتاح » لان تلك قد اصبحت امامي بفضل احد المعارف .

لا شك عندي في ان عباس محمود العقاد لا يجد سببا للتذمر من مظهر الكتاب الذي طبعت فيه القصيدة . فورقه صقيل واصفر يريـــح العينين . وصفحاته كلها ذات طراز ولكل نشيد من اناشيد القصيدة صورة رمزية من رسم فنان ايطالي .

موضوع القصيدة عبقر العربية التقليدية وهي « قرية تسكنها الجـــن . ينسب اليها كل فائق جليل » . وقد اراد الشاعر ان يقوم بسفرة معراجية او معرية او دانتية الى عبقر . وكما سار محمد بصحبة جبريـــل الى الجحيم والسماء فتعرف اليها وكما فعـل الشاعر السوري الخالد ابو العلاء المعري وكما فعل شبه

فعله دانتي الغياري في « ديوينه كميديه » ، كذلك سار شفيق معلوف صحبة شيطان شعره الى عبقر .

لماذا اختار شفيق معلوف « عبقر » موضوعا لشعره ؟ لا اظن الا انه احب « الابتكار » ودافع ان يقلد من غيره ضمن نطاق ادب اللغة العربية ، اذ ليس لموضوع القصيدة ، اي لعبقر ، اية قضية نفسية او فلسفية عامـة كالتي للجحيم والسماء . وهذا الموضوع مجهول في سورية الا عند الذين اكبوا عـلى دراسة التقاليد والخرافات العربية كالمستشرقين ومن جرى مجراهم . وصوره الاصلية هي صور خرافات واوهام تلازم الجماعات البشرية المكتنفة نفوسها ظلمة الجهل والغفلة والوحشة . فخيالاتها غرائب لا منطقية ولا تسلسل فلسفي لها ، كظهور الجن وركوبها الارنب والظبي واليربوع والحية وغيرها ، وكمخاطبة الجن وغير ذلك ، وكعجائب الكهان الذين يولد بعضهم بلا عظام وبعضهم نصف انسان . وهذا النوع من الخرافات لا مغزى له غير ما يدل عليه من حالة الاقوام التي تمارسه . وعـلى عكس ذلك الاساطير الراقيـة ذات الصبغة الفلسفية المتناولة قضايا الحياة الروحية والمادية ، الملازمة للجماعات البشرية التي اظهرت استعدادا نفسيا عاليا وجعلت اساطيرها ذات مغزى في الحيـاة وفي الممات ، كالاساطير السورية التي اثرت تأثيراً كبيراً في الاساطير الاغريكية وساعدت على نشوء ابدع الشعر الكلاسيكي واسمى التفكير الفلسفي . ولا بد هنا مـن تصحيح الاعتقاد الشائع ان الشعر الكلاسيكي يبتدىء بهوميرس . انه يبتدىء ، مئات مـن السنين قبل الياذة هوميرس ، بقصيدة « طافون » في سورية ، في رأس شمرا ، التي يرجح انها « اوقاريت » القديمة ، كما اظهرت التنقيبات الجـديدة بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٢ .

لم يتناول ناظم « عبقر » هذا الموضوع العربي بقصد تصوير حالة العرب

النفسية في خرافاتها وتخيلاتها وهي تغدو وتروح بين كثبان الرمال وفي مفاوز الصحراء وسباسبها ووسط انجادها ووهادها ، بل كان قصده ان يجد في تلك الصور الاولية ، التي منشأها مخاوف الجهل وهواجس الاضطراب تجاه الخفاء ، مغازي الاساطير العليا ، الراسمة لقضايا الحياة الانسانية ومسائلها النفسية الكبرى رموزا فلسفية في غاية الدقة من التمعن وقوة الملاحظة المتنبهة بالاستعداد الذاتي والاتجاه الدال على طموح نفسي عظيم الى ادراك كنه الحياة والوجود والبقاء والفناء والاغراض العظمى من الوجود الانساني ، مما هو من شأن الجماعات الاخذة باسباب الرقي الفكري . فكان قصد الشاعر اعظم واعلى من الاسباب التي اراد بلوغه بها والنتيجة الاخيرة التي وصل اليها ناظم « عبقر » ليست من النتائج المسعدة التي يرغب فيها الادراك العالي . حاول الشاعر ان يرقى بالخرافات العربية الى مرتبة الاساطير الفلسفية فنزل بفلسفة الاساطير الى حالة لا منطقية .

لعل اعظم مدح لشاعرية شفيق معلوف انه حاول ان يربط جميع الاوهام العربية التقليدية في عبقر والجن والكهانة بخيط من الفكر والشعور يتعلق بموضوع من اهم المواضيع الانسانية : الحب . لا اظن احدا سبق شفيق معلوف الى هذه المحاولة ولا اعتقد ان احدا سيدركه في مثلها . انها ابتكار ولكني لا اتمنى ان يجد مقلدين كثيرين في سوريه .

لم يكن شفيق معلوف محتاجا الى هذه السياحة الطويلة الى عبقر ليظهر انه شاعر في الوصف الروائي . ولم يكن محتاجاً اليها عبّارة ليصل الى تمجيد الحب الفاني الذي يتغذى بدم شرايين الشباب وينمو بحرارة اجساد الفتوة ثم يجف مع جفاف الشرايين ويتقلص بتناقص الحرارة ويفنى بفناء الاجساد .

تمتاز « عبقر » على « بنت يفتاح » وعلى كل ما وقع عليه نظري في

الشعر السوري والمصري والعربي القديم والحديث ، باستثناء انتـــاج الشاعر السوري الكبير ابي العلاء المعري ، بانها شيء مركب بابداع المخيلة التي انشأت فصوله و « مؤلف » بعناية اشترك في تأليفه الفكر او العقل مع الشعور ، وبانها محاولة مركبة تدل على مؤهلات الناظم للصعود فوق العواطف والانفعـالات العارضة او الفطرية ولتناول المواضيع الانسانية المتعلقة بصفات الانسان الجوهرية الباقية . تمتاز بانها خيالية وبان الخيال فيها مربوط بالعقل ، وبان الفكر لم يهمل فيها لتترك العاطفة على سجيتها .

هذه حقائق الشاعرية الكبرى في « عبقر » . ولكن يلاحظ في هذه الشاعرية الخلو من النظرة الفلسفية الى الحياة والكون والفن القـادرة على التأسيس او البناء لحياة اسعد حالا وابقى مآلا . واعتقد ان الخلو من هذه النظرة هو السبب الذي حمل الشاعر على دفن شاعريته في تتبع الخيالات والخرافات العربية الخالية من المغزى الفلسفي او من سحر الجمال، ومعاناة استخراج بعض الرموز والمغازي من جميع تلك الاستعراضات الغريبة ، من ركوب ظهر الشيطان الى ذكر عرافة عبقر الى عبقر بذاتها ، كما يتصورها الشاعر ، الى « مراكب الجن » ، الى الجن ، الى الكاهنين سطيح وشق وغير ذلك من اضغاث الاوهـام التي لا تجد فيها اي تعبير او مغزى فلسفي يصلح لتوسيع افق النفس في الحياة ومراميها . ولذلك اجد « عبقر » خالية الا من استعراض الخرافات الشبحية واعتقادات اولية بالية في « حديث العرافـة » وتمجيد للحب المتلظي في الشفاه ، وكل ذلك باسلوب شعري جميل جزلت « معانيه » ولطفت ديباجته وحلت رقته ، ولكنه لا يوجد في النفس غير لذة تشبه اللذة التي تورثها خمر جيدة تسعد باحتسائها وتثمل بدبيبها وتلتذ بذكراهـا ولا شيء وراء ذلك . ومع هذا ففي « عبقر » ابيات فيها لمحات او لمعات نفسية تكاد تصل الى الثورة الروحية كقوله :

ما الفرق في نوميَ وفي يقظتي   وكل ما في يقظاتي رؤى .

في « نشيد الكاهن سطيح » وفي « حديث الكاهن شق » يجد الباحث محاولة للاقتراب من الفلسفة والفلسفة الاجتماعية . ولكن ليس في هذا الاقتراب غير مجاراة الاعتقادات القديمة كقوله على لسان سطيح :

والخلق من حمقى ومن اغبياء
يجرون كالعميان خلف القدر
وفوقهم يلمع سيف القضاء
وتحتهم تفغر فاها الحفر

وكقوله على لسان شق :

ما ضرني والواحد السرمد .
لم يحب جسمي بيدين اثنتين
ما زال للقضاء فوقي يد
فليس بي من حاجة لليدين

ولكنه في « حديث شق » يخرج الى تأملات اجتماعية بعضها ذو صبغة مناقبية متفقة مع خطط التفكير السوري كقوله :

شذب مني الاغصن الفاسدة   فصلحت بقيتي الباقيـة
هل تنفع اليدان والواحدة   تهدم مـــا تشيده الثانية

وكقوله:

وان قلبا بعضه يشعر
وبعضه كأنه الجلمد
حسبي منه نصفه النير
لا كان قلب نصفه اسود !

فالبيتان الاخيران والبيت السابق لهما هما من اجمل واسمى التعابير الشعرية في حيز من الفكر صالح لتثبيت قواعد الاجتماع والعمران ولتقوية المناقب الضعيفة .

اتناول اخيراً الغاية الاخيرة من « عبقر » — الحب

الصورة التي يرسمها شفيق معلوف للحب ليست في « عبقر » ارقى منها في «الاحلام» الا قليلا . انه الحب الجاهلي او البربري او الفطري . انه الحب الذي لم يروضه التمدن ولم تقومه الثقافة ولم ترتفع به النفس . في « اغنية الجنية » يظن المدقق ، باديء بدء ، ان الشاعر يحاول تصوير ميول الجن وشهواتها ليخرج من ذلك الى فكرة فلسفية في الحب ومغزاه ولكن ختام القصيدة ، «همس الجماجم» العبقرية ، يثبت ان صورة الحب التي يراها الشاعر هي صورة الضم والتقبيل وارتجاف الاضلع وطلب الاجساد الاجساد . والشاعر يتدرج منذ البدء نحو هذه الغاية او هذا المثال . ففي تصويره « اميرة الجن » يكني عن الحب الذي يرمي اليه بقوله :

مست بروح ليس من عبقر
غادرها غرقى ببحرانها

فكأنه يريد ان يقول ان روح الانس دخل في جسم اميرة الجن فجلب اليها اماني الانسان وتصوراته فاذا هي الشهوات الجسدية الملحة :

ويحي ! من يشبع في النهم ؟
أ كلما استلقت على معصمي
روح ، فقربت اليها فمي
تملصت ... فلم اقبل ولم
اضم الا عدما في عدم ؟

ويستطرد الشاعر ، مصورا عالم الانس ، فيقول :

في العالم الاخر حيث الارج
يجاذب الانفس اهواءها
متى تلظت شهوة في المهج
لم تعدم الاجساد اطفاءها .
ما فيه غير الحب ملء الفضاء .
ملء الثرى ، في الغاب في ظله .
فوق الجبال الناطحات السماء ،
في الماء ، في كيانه كله ...

هذه هي صورة الحب التي يراها الشاعر في عالم الانس فيرسمها في «اغنية الجنية» . وانظر كيف يتابع الشاعر في هذا النشيد وصف الحب :

من لي بحب نوره ينبلج
من شرر محتدم في المقل ؟
من لي بثغر لاهب تنفرج
ثغرته عن شعلات القبل ؟
من لي بذي صدر خفوق الج
في صدره وان يكن يختلج
لعاصف الموت اختلاج الشعل ..
ما نفع روح خالد عشت فيه
ما زلت لم احضن ولم احتضن

ينتقل الشاعر من الجن الى « العبقريين » ويعني بهم الشعراء فيرى مثاويهم ويسمع همس جماجمهم فلا ترى فرقا بين ذكرياتهم واماني الجنيات وهاك

ختام الرواية وفيه غايتها الاخيرة ومثالها الاعلى :

تالله لا الاصنام ولا الخرافاتْ
تهز منا العظام ونحن امواتْ
تلاشت الاوهام
واهلها ماتوا
لكن من يهز منا الرفات
فهو الذي كل اماني الحياة
يفتر في ثغره
وكل ما في الارض من ذكريات
يغفو على صدره

. . . . .

لا تستطيب النجوم غير تهاليله
وليس تبكي الغيوم في غير منديله

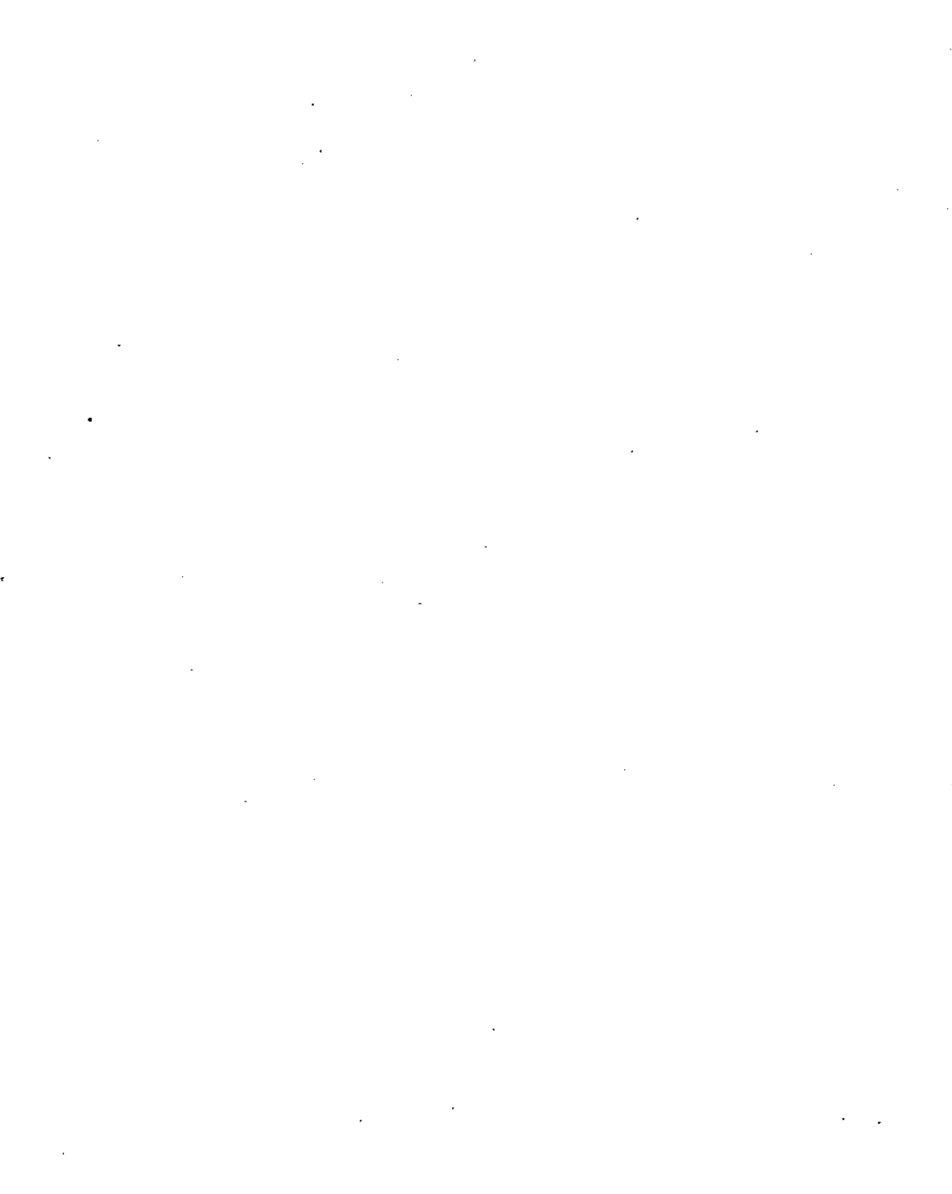
. . . . .

ذاك هو الحب لصيق الثرى
ما لجناحي عزمه نهض
خصوا به الجنة وهو الذي
مضجعه القتاد والقض
والحب في الجنة ما شانه
ولا اذى فيها ولا بغض
القوه للنار وان ارمضت
اقدامه المواطىء الرمض

وليتلقفه شواظ اللظى
وليتلهم بعضه البعض
فالارض ان كانت جحيما له
وكان فيها تهنا الارض

هذا هو كل مرمى القصيدة . الصورة الشعرية رائعة ولكن التصور المثالي فطري ساذج . ويمكن ان ينعت بالجاهلي او الوحشي . فالحب ، كما يصوره الشاعر ، هو نزعة بيولجية بكل ما فيها من ميول واشواق جسدية ، لا غاية نفسية مثالية تتخذ من الغرض البيلوجي سلما لبلوغ ذروة مثالها الاعلى حيث تنعتق النفس من قيود حاجة بقاء النوع ولذائذ اغراضه ويشاد بناء نفسي شامخ لحياة اجود وحيث يصير مطلب الحب السعادة الانسانية الاجتماعية الكبرى. فيكون الحب اتحاد نفوس . ولا يكون اعتناق الاجساد غير واسطة لتعانق النفوس المصممة على الوقوف معا والسقوط معا من اجل تحقيق المطلب الاعلى، في جهاد ضد الفساد والرذائل ، ولنصرة الحق الكلي والعدل الكلي والجمال الكلي والحب الكلي ولرفض اللذات الجسدية غاية في ذاتها ، التي هي اعظم مصدر للاذى والبغض والعدوات الصغيرة ، اللئيمة ، الحقيرة ، التي لا ترى في الكون غير صغرها ولومها وحقارتها .

طريق الفكر السوري



طريق الفكر السوري

اذا قست شفيق معلوف بالمقياس الذي وضعته للشاعر وهو : «الشاعر هو الذي يعني بابراز اسمى واجمل ما في كل حيز من فكر او شعور او مادة» وجدته شاعرا شاعرا . فهو ارتقى بموضوعه الى اعلى علوه ضمن حيز الفكر والشعور الذي لازمه ، وهو حيز نظرة قصيرة ، قديمة ، جامدة .

ان فهم الحب كما ورد في «عبقر» ليس نظرة خاصة بشفيق معلوف ، بل مشتركة بين جميع شعراء اللغة العربية الذين ورثوا خطط الادب العربي . فالحب المادي المتخذ شكلا في اللذائذ الجسدية هو المطلب الاعلى في الادب العربي كله . ضمن هذا الحيز الروحي نشأ شعراء اللغة العربية وضمنه انشأ شفيق معلوف «عبقر» لتكون نصبا فخما ، جميلا لنظرة الحياة الباطلة الفانية ، فاجاد اجادة كبيرة وابدع التصور والتصوير . فذهب في فن الشعر الى ابعد ما سمح له حيز النظرة الى الحياة والكون والفن المذكور آنفاً . وهذا شاهد آخر على انه لا يمكن رفع مستوى الادب الا باعتناق نظرة الى الحياة اساسية ، جديدة توحي عالماً جديداً من الفهم والمطالب والغايات وليس كما يقول طه حسين بزيادة الاطلاع في الادب القديم وفي الاداب الاجنبية القديمة التي انشأت الادب الاجنبي الحديث . فشفيق معلوف يكشف في «عبقر» عن اتصال وثيق بالادب العربي القديم وبشؤون النفسية العربية وخيالاتها ومثلها . وقد احدث في القصيدة المذكورة اشكالا هي غاية في الابداع والابتكار في الاسلوب . واذا كان المقصود من تجديد الادب ارتقاء اساليبه واحداث انواع من المجاز جديدة

فقط ، مع بقاء النظرة الى الحياةعلى حالها ، « فعبقر »تعتبر تجديداًهاماً . ولكني اری المقصود من طلب ادب جديد هو الوصول عن طريقه الى فهم جديدللحياة يرفع الانفس الى مستوى اعلى ويمكنها من ادراك حيز جديد من النظر النفسي مشتمل على مثل عليا جديدة تتبلورفيهـــا اماني الحياة واشواقها المنبعثة من خصائص نفسيتها الاصلية ، والا فكل تجديد شكلي لا يحمل تجديداً في الاساس هو من قبيل اللهو الباطل واللذات الزائلة التي لا بقاء ولا استمرار لهـــا الا استمرار تكرارها الممل .

ان في « عبقر » ابتكاراً جميلا في الشكل او الاسلوب ، ولكن هل حملت الى الانفس اتجاها جديداً ، اعلى مطلباً وارقى غاية واسمى نهاية ? كلا .

قلت فيما سبق ان التناقض بين غاية « تمثيل العصر » ، التي طلبهـا كبار ادباء العصر الحالي من نظرة جديدة الى الحياة ،والحاجة الى التجديد هوفي بُعدالادباء الذين عالجوا الموضوع حتى الان عن صلبه وعن قضاياه الكبرى التي ليست هي قضايا ادبية بحت .

ان في سورية حاجـــة الى التجديد الادبي ، ليس لمجرد التجديد وتغيير الاساليب واظهار اشباح جديدة ، بل للوصول الى التعبير عن نظرة الى الحياة والكون والفن جديدة ، قادرة على استيعاب المطالب والمطامح النفسية المنطبقة على خطط النفس السورية . كل تجديد غير هـــذا التجديد يزيد في هيام النفس السورية وظلمتها التي اكتنفتها منذ شذت عن محورها الاصلي بعامل الفتوحات البربرية ، التي قطعت بين ادب سورية وخططهـا النفسية . وان من شروط النظرة الجديدة الى الحياة والكون والفن ، الصالحـــة لتقدم الحياة الانسانية وارتقائها ، ان تكون نظرة ذات « اصل » والا كانت عارضا من العوارض التي تلغي الشخصية والنفسية وخصائصها فتضل النفس وتحار لا تدري ما هي

حقيقتها ولا ما هي اوهامها كقول شاعر « عبقر » :

ما الفرق في نومي وفي يقظتي   وكل ما في يقظاتي رؤى؟

لا تجد النفس السورية شيئاً من خصائصها واصولها في ابتكارات « عبقر » الشعرية المشتملة على طائفة من الخرافات العربية الخالية من المغزى الفلسفي ومن العلاقات بمجرى الفكر والشعور الانسانيين الراقيين كما ترسمه الاساطير السورية التي جاءت النظرة السورية القومية الاجتماعية الى الحياة والكون والفن تزيل الطبقات التي تراكمت عليها ودفنتها ، وتوجد الاستمرار الفلسفي بين السوري القديم والسوري القومي الاجتماعي الجديد . ويظهر الفرق العظيم في النتائج الروحية بين الاهتمام بالخرافات والمواضيع الغريبة، بدون نظرة واضحة ، اساسية الى الحياة والكون والفن ، والعناية بالاساطير الاصلية ذات المغزى الفلسفي في الوجود الانساني ، بوعي لنظرة اساسية الى الحياة والكون والفن ، من ايراد بعض الامثلة :

ليست قصة ادون أو ادونيس مجهولة . وكل متأمل فيها يجد لها مغزى وعلاقة وثيقة بمجرى الحياة . وهذه ليست القصة الاسطورية الوحيدة . ففي اكتشافات راس شمرا ، قرب اللاذقية ، التي ورد ذكرها فوق ، ظهرت حقائق رائعة عن عظمة التخيل السوري والتفكير السوري في الحياة وقضاياها الكبرى . وهذه الحقائق لا تعلن شيئا اقل من هذا الواقع : ان اهم الاساطير اليونانية واهم قصص اليهود الاساسية المثبتة في التوراة مأخوذ عن اصول سورية كشف عن قسم كبير منها في روايات وقصائد وجدت في تنقيبات راس شمرا بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ ، كما كان قد كشف عن قسم هام منها في نينوي واشور ونمرود وبابل وسواها .

في سنة ١٩٢٩ اكتشفت بعثة التنقيبات في راس شمرا ، التي رأسها كلود ف . ر . شيفر ، شكلا قديما من الحروف الهجائية لم يكن

معروفـا من قبل . الشكل هو اقدم ما عرف ، وهو ايضاً فينيقي (كنعاني) الا ان الحروف ذات خصائص مسمارية . وهـذا دليل جديد قـاطع على نشوء الحروف الهجـائية في سورية ، التي حاول عدد غير يسير مـن المؤرخين المغرضين حرمانها من فخر اختراعها . بناء على اهمية هذا الاكتشاف العظيم وما جلاه من الحقائق العلمية الرائعة سأل معهـد النقوش في باريس ومتحف اللوفر ودائرة التهذيب العمومي الفرنسية ، بالاشتراك فيمابينها ، السيد شيفر ، بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٢ قيادة بعثة جديدة الى راس شمرا للبحث عن اصول حرفية غير التي اكتشفت اولا وعن بقـايا ارخيولوجية . ويقول رئيس البعثـة في مقالة عن اعمالها نشرتها مجلة « ناشنل جيوقرافك مـاقزين » الاميركانية في عددهـا الصادر في يوليو ١٩٣٣ : « ان نتائج هـذه الحفريات الجديدة فاقت جميع التكهنات وجعلت راس شمرا مـن اهم الرسوم الارخيولجية في الشرق القديم »

ما يعنينا في هذا الموضوع ، من اكتشافات راس شمرا ، هو القصائد والملاحم الرائعة ، التي تثبت بدون شك ان الشعر الكلاسيكي ابتدأ في سورية وعنه نقل الاقريك ، الذين تعاونوا هم والرومان على غمط سورية حقها في الابداع الفني وقيادة الفكر الانساني . يقول المكتشف :

« لم تكن خطورة اوقاريت (يرجح المكتشف ان راس شمرا هي التي كانت تعرف في المدونات القديمة المكتشفة في مصر باسم اوقاريت) قائمـة على التجارة والسياسة فحسب . ففيها حي مؤلفون وفلاسفة عظام لثلاثة الاف وثلاث مئة سنة خلت . وقد وجدنا فصولا كاملة من مخلفاتهم في مكتبة الهيكل في راس شمرا . هم ايضاً كتبوا بالعلامات المسمارية للاحرف على الواح كبيرة فوق المعتاد، قاسمين كتاباتهم الى اعمدة متعددة .

« كثيراً ما كان يحدث للمؤلف ان لا يقدر تقديراً صحيحاً طـــول الكتاب الاخذ في كتابته فيضيق مجال الفصول الاخيرة . فيضطر الى تقريب السطور الاخيرة بعضها من بعض ، كما يفعل الكاتبون العصريون عـــلى الآلة الكاتبة حين يستعملون « الفسحة المفردة الدرجة » ، والى تصغير حروف هذه السطور . وقد تجمع لدينا عدة فصول من مؤلف واحد تزيد على الف كلمة ، ويحتمل ان يكون عدد عبارات المؤلف كله اكثر من ثلاثة الاف بيت . وهذا المؤلف هو ملحمة بطولية .

« قبل الياذة هوميرس الخالدة بزمان طويل انشأ المؤلفون الفينيقيون (الكنعانيون) في اوقاريت الملاحم في مغامرات غريبة لبطل اسطوري يدعى طافن (او طافون) . كان هذا البطل هو المصطفى عند بعض الالهة الذين كانوا كثيراً في دار الالهة الفينيقية . ونص راس شمرا المكتشف يروي انـــه كان هنالك لا اقل من خمسين الهاً وخمس وعشرين الهة . فلم يكن طافون يقدر ان يتجنب جلب عداوة بعضهم على نفسه بسبب تحيزه في مشاحناتهم . هذه الالهة الفينيقية تظهر بروح حربية منتقمة وقاسية .

« ايل (او ال — يعني الاله) ، اب الالهة الكبير جداً ، الذي يسميه المؤلف « ملك السوم » ، ملك اومولونخ ، اي « ملك السنة » يبذل الجهـــد عبثاً لحفظ السلام بين ولده . وهو ، مع ذلك ، ليس كلي القدرة ، لانه كثيراً ما يضطر لقبول رغائب زوجته الالهية عشيرة او اشرة ، الهة البحر ، التي لها سبعون ولداً تفضل بعضهم على بعض . هذا التخصيص هو سبب المشاحنات في مملكة الالهة .

« المقاوم الاكبر والالد لايل هو بعل ، المستبد منذ ولادته ، الطامح الى الملكية المطلقة . ورواية العراك بين ملك السنة ، الشيخ العادل ، وبعل

هي رواية ذات جاذبية نادرة وغنية بالمواقف المثيرة الشعور . وبعل ينتصر في الاخير والشباب بكل قسوته وظلمه يغلب حرمة السن . وهذه هي العبرة التي يريد المؤلف ابرازها .

« القتال بين معط وعلين

« على لوح آخر من الواح راس شمرا مدون وصف للقتال بين «معط» الرامز الى الطبيعة المثمرة و «علين» الذى يملك على الغيث والريح .

« قتل معط علين فصار الناس يشكون الى الالهة . فقد جفت الارض بسبب قتله وامست السباع تطوف بالمدن . فتنهض الالهـــة اناة (او عناة) ، اخت اله الغيث المقتول ، لمناقشة معط الحساب على ما جنت يداه . فينكر هـنا فعلته ويعـد بتحويل الصحاري الى مروج خضراء (بالنيابة عن علين) . ولكنه يخفق وتذهب سدى جميع التقدمات التي تقدمها اليه البشرية رجاء ان يعطيها الغيث .

« حينئذ ينفد صبر اناة فتأخذ منجلا وتضرب به معطيا فتقتله . ثم تحرق جثته . وقد تأكل بعضها ، وتذري البقية في الحقول . وهكذا يتحول معط الى الانتاج او الحصاد الذي يسقط تحت المنجل ليعطي الخبز للانســـانية

« بعـد انتقام اناة يبعث علين ويعود المطر الى السقوط .

« يدخل في هذه الحكاية اشخاص الهة آخرون . ولكل منهم رسالة يؤديها : الحكمة ، اله الحكمة الذي يذكر الناس بالصبر ويدعوهم الى التسليم للقدر . وادون ، ادونيس الفينيقيين الكلاسيكيين ، الذي يملاء نفوسهم بالجدل والحماسة للجمال والحب . ثم الالهة اماة ، خادمة اشرة القوية ، ام الالهة ، التي تُري الناس كيف يصنعون الآجر من الطين لبناء بيوتهم .

« وبعل نفسه (رمز الشباب) يعقد عزيمته ويُقدم على قتال الافعى ذاته

السبعة رؤوس ، التي كان البشر يخافونها خوفاً شديداً . اسم هـذه الافعى في قص مؤلف راس شمرا « لتن » . وفي اشعيا ٢٧ : ١ والمزامير ٧٣ : ١٤ من التوراة نرى الحية تحمل الاسم عينه « لتن » بتحوير قليل في اللفظ « لويتان » او التنين (اشعيا : في ذلك اليوم يفتقد الرب بسيفه القــاسي العظيم الشديد لويتان الحية المقومة ولويتان الحية المتلوية ويقتل التنين الذي في البحر . المزامير: انت رضضت رؤوس لويتان . جعلته مأكلا لزمر القفــار) . هنا نلمس انباء ذات خطورة مهيجة وثوروية .

« جميعنا نتذكر دانيال ، الذي كان ، مع نوح وايوب ، من اتقى اهـل زمانه . دانيال يظهر في احد نصوص راس شمرا باسم دين — ايل ، الذي يجب ان يترجم : دين او دينونة الله » .

هنالك حقائق اخرى غاية في الخطورة وردت في مقالة مكتشف اثار راس شمرا ولكنها ذات علاقة قليلة بموضوع هذا البحث فلا اعرض لها الان . اما ما ترجمته آنفاً من مقالة المكتشف واختص بالناحية الادبية فهو شيء يحرك اعماق نفس كل سوري وكل انسان محب للفلسفة والفن .

انها صورة مختصرة ، ناقصة ، سقيمة هــذه الصورة التي يقدمها لنا كلود ف . ا . شيفر في مقالة اخبارية ، مقتضبة ، جامدة لا روح فيها ولا فن . وهي ، مع ذلك ، تشتمل على ملامح شخصية نفسية اصلية ذات سناء وبهاء . وقضاياها تبدو وضاءة ، غضة ، كأنها انشئت امس او اليوم . فترى فيها التصور السوري قد عرض لقضايا الحياة باسبابها واشكالها ، فتناول الشيخوخة والشباب والابوّة والبنوّة والحب والبغض والحكمة والاقدام والعدل والظلم والطموح والقناعة . ترى الشباب فيهــا غير نابض بثورة الشهوات والحب البيلوجي ، بل تراه في مطامح السؤدد وفي محاربة لويتان او تنين الرذائل الذي كان ولا يزال يخيف

النوع الانساني . وترى اله الحكمة يعظ بالتسليم للقضاء والقدر ولكن دوره جزء من ادوار غيره وهو ليس اقواها ولعله اضعفها .

ولا ننسَ ملحمة جلغاس البابلية المختومة بقصة الطوفان الرائعة ، المكتشفة في مكتبة الملك الاشوري العظيم أشور باني بال ، التي نقلها اليهود برمتها الى توراتهم ، مع بعض تغيير سطحي في بعض حوادثها الجزئية البسيطة .

كم يجد المؤرخون والدارسون اليونان من اجل عظمة اساطيرهم التي يعود معظمها او اهمها الى سورية . فحكاية انتقام اناة من معط بالمنجل وذر بقاياه في الحقول لينبت الزرع ويسقط تحت المنجل واساطير كثيرة غيرها منقولة بحذافيرها تقريباً الى الاساطير الاقريكية والعالم يعيرنا باننا نحن الذين نقلنا عن الاقريك والعالم مديون لنا بفلسفات جليلة ويقول اننا جميعاً مديونون لليونان فقط .

متى اخذ الادباء السوريون ، الموهوبون ، المدركون سمو النظرة السورية القومية الاجتماعية الى الحياة والكون والفن ، يطلعون على هـذه الكنوز الروحية الثمينة ، ازدادوا يقيناً بحقيقة نظرتهم وعظمة اسبابها وبقوة الموحيات الفلسفية والفنية الاصلية في طبيعة امتهم ، التي يؤهلهم فهمها لانشاء ادب فخم ، جميل ، خالد .

في مثل هذا الادب ، الخارج من صميم حياتنا السورية ، المؤسس على النظرة الجديدة الاصلية الى الحياة والكون والفن ، نجد التجديد النفسي والادبي والفني الذي نشتاق ونحنّ اليه بكل جوارحنا .

الى مقام الالهة السورية يجب على الادباء الواعين ان يحجوا ويسجدوا فيعودوا من سياحاتهم ، حاملين الينا ادبا يجعلنا نكتشف حقيقتنا النفسية ضمن قضايا الحياة الكبرى التي تناولها تفكيرنا من قبل في اساطيرنا ، التي لها منزلة في الفكر والشعور الانسانيين تسمو على كل ما عرف ويعرف من قضايا الفكر والشعور .

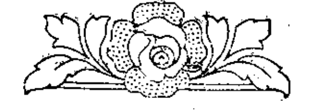
الان اخاطب ، انا ، جميع شعراء سورية قائلا :

تعالوا نرفع لهذه الامة التي تتخبط في الظلمات مشعالا فيه نورُ حقيقتنا واملُ ارادتنا وصحةُ حياتنا . تعالوا نشيد لامتنا قصوراً من الحب والحكمة والجمال والامل بمواد تاريخ امتنا السورية ومواهبها وفلسفات اساطيرها وتعاليمها المتناولة قضايا الحياة الانسانية الكبرى . تعالوا نأخذ بنظرة الى الحياة والكون والفن نقدر ، على ضوئها ، ان نبعث حقيقتنا الجميلة العظيمة من مرقدهــا — حقيقتنا ، التي لا ترى الحب خدوداً ونهوداً وقدوداً دونها القتاد والقضّ ، ولا ترى الشباب افواهاً ملصقة بافواه وشرراً محتدماً في المقل وثغوراً لاهبــة تضطرم فيها شعلات القبل ، بل ترى الحب نفوساً جميلة في مطالب عليا عظيمة تحمل النفوس في سبيلها المشقات الهائلة ، التي يذللها اتحاد النفوس في وحـدة الشعور والمطلب — الحبُ الذي اذا قرّب فماً الى فم انسكب نفساً في نفس ، وكل واحدة تقول للاخرى : اني معك في النصر والاستشهاد من اجل ما نأبى نفسانا الاه ولا تستعظمان امراً ولا تضحيــة يكون بهما بلوغه والاحتفاظ به . وترى الشبابَ ، كما تمثله الاساطير السورية في شخص بعل ، قوةً عظيمة غرضها قتـل لويتان الرذائل والخسائس والقبائح . وبهذا المعنى الجميـل ، الراسخ في اصول الحياة السورية وتقاليدها ، يجب ان نفهم قول الشاعر السوري الخالد ، المعري:

ان الشبيبة نارٌ ، ان اردت بها   امراً فبادرْهُ ، ان الدهر مُطفئها

تعالوا نأخذ بنظرة جديدة الى الحياة والكون والفن ، وبفهم جديــد للوجود وقضاياه ، نجد فيهما حقيقة نفسيتنــا ومطامحنا ومُثلنا العليــا . تعالوا الى الحرية والواجب والنظــام والقوة ، ليس لأنها شعار حزب سيــاسي اجتماعي ، بل لانها رمز فكرنا وشعورنا في الحيـاة ولذلك صارت شعــار حركة البعث القومي ، التي وضعنا فيها كل رجائنا وكلَ قوتنا وكلَ ارادتنــا .

تعالوا نقيمُ ادبا صحيحاً له اصولٌ حقيقية في نفوسنا وفي تاريخنـــا . تعالوا نفهمْ انفسَنا وتاريخَنا على ضوء نظرتنا الاصلية الى الحياةِ والكونِ والفن بهذه الطريقة نوجدُ ادبا حياً جديراً بتقديرِ العالم وبالخلود .



طريق الادب السوري



طريق الادب السوري

بهذا الاتجاه الجديد يمكن ان يترافق الادب والحياة ، فيكون لنا ادب جديد لحياة جديدة فيها فهم جديد للوجود الانساني وقضاياه التي نجد فيها الفرد والمجتمع وعلاقاتهما ومثلهما العليا كما تراهـا النظرة الجديـدة الاصلية الى الحياة والكون والفن . ان الادب الصحيح يجب ان يكون الواسطة المثلى لنقل الفكر والشعور الجديدين ، الصادرين عن النظرة الجديدة،الى احساس المجموع وادراكه والى سمع العالم وبصره فيصير ادبا قوميا وعـالميا لانه يرفع الامـة الى مستوى النظرة الجديدة ويضيء طريقها اليه،ويحمل ، في الوقت عينه ، ثروة نفسية اصلية في الفكر والشعور والوانهما الى العالم .

لا يمكن ان ينهض الادب عندنا ولا ان يصير لنا ادب عـالمي يستدعي اهتمام العالم وتكون له قيمة عالمية باقية الا بهذه الطريقة . ولنفترض انه يمكن انشاء ادب جديد ، او احداث «تجديد» في الادب ، من غير هذا الاتصال الوثيق بينه وبين النظرة الجديدة الى الحياة والكون والفن ، فما هي الغاية او الفائدة منه وهو شيء غريب بعيد عن نفس الجماعة وقضاياها الفكرية والشعورية ، اوعن قضايا الانسانية ، كما تتمثل ضمن حياة الجماعة المعينة وحيز فكرها وشعورها ، في ارقى ما يمكن ان يصل اليه هذان العاملان النفسيان .

ان الادب الذي له قيمة في حياة الامة ، وفي العالم ، هو الادب الذي يعنى بقضايا الفكر والشعور الكبرى ، في نظرة الى الحياة والكون والفن عالية اصلية ، ممتازة ، لها خصائص شخصيتها . فاذا نشأت هذه النظرة الجديدة الى الحياة

والكون والفن اوجدت فيها جديداً للقضايا الانسانية كقضية الفرد والمجتمع وقضية الحرية وقضية الواجب وقضية النظام وقضية القوة وقضية الحق وغيرها. وبعض هذه القضايا يكون قديما فيتجدد بحصول النظرة الجديدة الى الحياة وبعضها ينشأ بنشؤ هذه النظرة . فالحرية ، مثلا ، كانت تفهم قبل النظرة الجديدة الى الحياة في اشكال واعتقادات لا وضوح ولا صلاح لها في النظرة الجديدة . فلما جاءت النظرة الجديدة الى الحياة والكون والفن ، التي نشأت بسببها الحركة السورية القومية الاجتماعية ، وقرنت الحرية بالواجب والنظام والقوة ، وفصلت الحرية ضمن المجتمع وتجاه المجتمعات الاخرى هذا التفصيل الواضح ، الظاهر في تعاليمها ، نشأت قضية جديدة للحرية ذات عناصر جديدة بينها فهم جديد يتناول اشكال الحياة كما تراها النهضة القومية الاجتماعية ، وفعل الحرية وشأنها ضمن هذه الاشكال . والحب كان قضية شهوات جسدية ملتهبة لها شكل مادي يظهر في العيون الرامية سهاما وفي خمر الرضاب وفي ارتجاف الضلاع وتثني القدرد ، فصار قضية جمال الحياة كلها واشتراك النفوس في هذا الجمال . عرض علي ، مرة ، سجل امثال واقوال فرأيت فيه قولا مفاده ان الصداقة اجمل ما في الحياة ، فكتبت في صفحة منه : « الصداقة هي تعزية الحياة اما الحب فهو الدافع نحو المثال الاعلى » . ومهما يكن من امر رايي في الصداقة فرايي في الحب يدخل في قضية الحب الجديدة . فالمثال الاعلى هو ما تراه نظرة الى الحياة والكون والفن واضحة ، معينة . والحب الواعي هذه النظرة يتجه دائماً نحو مثالها الاعلى ويرمي الى الاقتراب منه ، في كل اختلاجة من اختلاجاته . ان قضية كون الوصال غاية المطالب العليا النفسية هي قضية قد ماتت للنظرة الجديدة الى الحياة والكون والفن وحلت محلها قضية كون الحب اتحاد فكر وشعور ، واشتراك نفوس في فهم جمال الحياة وتحقيق مطالبها العليا .

لقد نشأت نظرة الى الحياة والكون والفن جديدة في سورية ونتج عنها مجرى حياة جديد لتيارات النفس السورية التي كانت مكبوتة ومحجوزة . فهل يتنبه لهذه الحقيقة ادباء سورية ، وخصوصاً شعراؤها ، ويلبون هاتف الدعوة ويشتركون في رفع الشعب السوري الى مستوى النظرة الجديدة ومثلها العليا ، ويوجدون هذا الادب الغني بالقضايا الفكرية والشعورية التي كانت كامنة في باطن نفسيتنا حتى ظهرت في النظرة الجديدة الى الحياة ؟

لا شك عندي في ان هذا ما يحدث الان عند جميع الادباء الذين اتصلوا بالنظرة الجديدة الى الحياة والكون والفن ، وفهموا قضاياها الكبرى في الحقوق والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، وفي الاخلاق والمناقب والمثل العليا . واني موقن بان هذا ما سيحدث لجميع الناشئين على اتصال وامتزاج بهذه النظرة المحيية . ولكني اشك في امر الادباء الذين نشأوا قبل ظهور النظرة الجديدة الى الحياة وظلوا بعيدين عن مراميها وقضاياها الكبرى وغير متصلين بمجرى الحياة الجديد الذي ولدته هذه النظرة ، او الذين ، مع احساسهم بمجرى الحياة الجديد ، لم يجدوا في نفوسهم قوى كافية لنقلهم من حيز نظرة الى حيز نظرة اخرى ومن اتجاه مجرى الى اتجاه مجرى آخر .

بعض العلل المانعة لهؤلاء الادباء من الاخذ بالنظرة الجديدة الى الحياة والكون والفن واضح في النزعة الفردية التي دللت عليها في كتاب السيد يوسف المعلوف الى نسيبه الشاعر ، شفيق معلوف ، اذ يقول له : « اعتن في مؤلفاتك المقبلة ان تكون مبتكراً فيما تنزع اليه ، سواء كان بالفكر اوبالعمل ، وان تكون مقلَّداً لا مقلِّدا في سائر اعمالك ، لان على هذه القاعدة الاساسية تتوقف شهرة المرء في الحياة » . وقد بينت في صدر هذا الدرس غلط هذا التفكير الذي يجعل الشهرة الشخصية غاية الفكر والعمل في الحياة . وازيد هنا ان العمل بهذه « القاعدة الاساسية » التي

وضعها عم الشاعر المذكور يؤول الى هدم الحقائق الاساسية التي يجب ان تكون بغية كل تفكير تعميري وكل شعور حي ، جميل ، لانه متى صار كل نابه يسعى ليكون مقلداً ، فكم تكون التفرقة والفوضى عظيمتين بين المتزاحمين على « الابتكار » بقصد الشهرة والاستعلاء على زملائهم ، الذين يصيرون اندادا؟ الا يبلغ بهم التزاحم والمناقضة حد العداوة والبغضاء والحسد المستورة بظواهر شفافة من الرياء والتدجيل في المظاهر والمطالب ؟

قلت في ما تقدم ان شفيق معلوف قبل القاعدة الفردية التي وضعها عمه ، ولكنه لم يتقيد بها كل التقيد ، لانه احتاج الى تبرير مجاراته سواه في شعره فقال : « ولئن طرقت بابا ولجه سواي فهل في كل ما تتناوله القرائح ما لم يطرق الناس بابه ؟ » . وقلت ايضاً ان شفيق معلوف كاد يصل ، من هذه الناحية ، الى طرق باب ينفتح عن افق تنبلج فيه انوار فجر تفكير اصلي جديد ولا يقصر الا خطوة او قفزة واحدة ليلج هذا الباب . فما هي هذه الخطوة او القفزة وكيف تكون ؟

سبق لي القول ان الخطوة المطلوبة تفصل بين عالمين وقد تحتاج لعكاز . ذلك لانها تنقل صاحبها من نفسية الى نفسية ومن نظرة الى نظرة ، فيصير لها عالم جديد باشكاله والوانه وغاياته ومثله . الخطوة او القفزة المطلوبة تكون باستعمال جميع القوى النفسية لرفس عالم النزعة الفردية والغايات المادية ، وترك جعل حب ابراز الشهرة الفردية غاية اخيرة للفرد ، والقفز الى عالم ابتغاء الحقيقة الاساسية الكبرى التي يستقر عليها الفكر ويطمئن اليها الشعور ، واتباعها حين توجد ، سواء اوجدت بالاهتداء الذاتي ام بهدي هاد . هي حقيقة الفرد والمجتمع وحقيقة النفسية السامية التي انتصرت على قيود المادية المجلجلة في الحضيض وحلقت الى السماء — السماء التي لا تخلو من

ألم وعذاب ولكن المها وعذابها ليسا من اجل الشهوة المتلظية في المهج ، بل من اجل ما هو اسمى من ذلك بكثير — من اجل ما لو اطفىء لظى الشهوة الجسدية وقضت النزعة البيولوجية وطرها لظل لظاه يلذع النفوس ويعذبها حتى تجد له تحقيقا — من اجل خذل الاقبح والاسفل والارذل والاذل ، ورفع الاجمل والاسمى والانبل والاعز ، فلا تكون هنالك اختلاجات حب الا ضمن دائرة هذا الوعي الذي يرفع قيمة الانسانية طبقات جوية فوق القناعة براحة النزعة البيولجية ذات الارتباط المادي ، الغافلة عن المطالب النفسية الجميلة في نظرة شاملة الحياة والكون والفن .

القاعدة الذهبية ، التي لا يصلح غيرها للنهوض بالحياة والادب ، هي هذه القاعدة : طلب الحقيقة الاساسية الكبرى لحياة اجود في عالم اجمل وقيم اعلى . لا فرق بين ان تكون هذه الحقيقة ابتكارك او ابتكاري او ابتكار غيرك وغيري ، ولا فرق بين ان يكون بزوغ هذه الحقيقة من شخص وجيه اجتماعيا ذي مال ونفوذ ، وان يكون انبثاقها من فرد هو واحد من الناس لان الغرض يجب ان يكون الحقيقة الاساسية المذكورة وليس الاتجاه السلبي الذي تقرره الرغائب الفردية ، الخصوصية ، الاستبدادية .

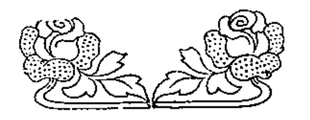
وقد قرب شفيق معلوف كثيراً من هذه القاعدة في جوابه الى عمه ولكنه وقف خطوة دونها فاذا هو خطاها تم له هذا الانتقال الفامل من عالم الى عالم واستغنى عن نصائح عمه ، التي تحتاج لغربلة متكررة ، وعن ارشادات امين الريحاني الغامضة ، الخاوية ، التائهة وعن تخبط الادباء السوريين والمصريين في « التجديد » وكيف يكون .

اعتقد ان لشفيق معلوف هذا الاستعداد العقلي — الروحي لادراك القاعدة المذكورة آنفاً والغاية النفسية الاخيرة التي يقوم عليها ادب خالد . فهو قد

وقف قريباً جداً من هـذا الادراك الذي وقف معظم شعراء سورية ومصر وادبائها بعيدين جداً عنه . وهو الادراك الوحيد الذي يمكن ان يجد مستقراً في النفوس وفي الاجيال . وكان اقتراب شفيق معلوف واضحاً في قوله : « اذ ليس الشاعر ، في عرفي ، من ضج له الجيل الواحد ، حتى اذا تبدلت الاوضاع واختلفت الاحوال تناسته من بعده الاجيال » . وهذه منزلة لا يمكن بلوغها الا بالاتصال بنظرة جديدة الى الحياة والكون والفن مشتملة على حقيقة اساسية صالحة لانشاء عالم جديد من الفكر والشعور ، اذا لم يكن هو العالم الاخير ، الاسمى على الاطلاق ، عند المشككين ، فهو عالم فوق العوالم الماضية ودرجة لا بد منها لاطراد ارتقاء الانسانية النفسي ، ولذلك هو عـالم خالد ، لان ما سيأتي بعده في الآباد البعيدة سيصدر عنه ويثبت نفسه عليه ، او ، على الاقل ، ستكون النفوس التي ارتقت الى هذا العالم الجديد مستعدة لاقتبال عالم اجد ، اذا كشفت مخبآت الابد انـه سيكون ممكنا احداث ذلك العالم ، الذي لا يمكننا ، الان والى امد بعيد ، تصور موجباته وحقائقـه وقضاياه ، ولكننا نتصور ، بموجب مبدأ الاستمرار والاطراد الفلسفي ، الذي اضعه نصب عيني في فهمي الوجود الانساني ، انـه لا بـد من ان يكون ذا اتصال وثيق بعالم نظرتنا الجديدة وحقائقـه وقضاياه ، كما اننـا نرى ، بموجب هذه النظرة ، ان عالمها ليس شيئاً حادثاً من غير اصل ، بل شيئاً غير ممكن بدون اصل جوهري تتصل حقائقه بحقائقه ، فتكون الحقـائق الجديدة صادرة عـن الحقائق الاصلية القديمـة بفهم جديـد للحياة وقضاياها والكون وامكانياتـه والفن ومراميه .

ها قد بلغت غاية ما اردت توجيه فكر ادباء سورية وشعورهم اليه في هذا الدرس المستعجل ، المقاطع مراراً عديدة في سياقه . ورجائي اليهم ان لا يظنوا ان مـا دفعني اليـه هو محبـة سبقهم الى « الابتكار » او رغبة في انه

اكون « مقلداً » . ان ما دفعني اليه هو محبة الحقيقة الاساسية ، التي وصل اليها تفكيري ودرسي ، واوصلني اليها فهمي ، الذي انا مـديون به كله لامتي وحقيقتها النفسية ، وشعرت بالواجب يدعوني لوضعها امام مفكري امتي وادبائها وامام امتي باجمعها ، من اجل ما هو ابقى وافضل واسمى لحقيقـــة الامة . وهي حقيقة تساعد كل مفكر واديب عـلى تثبيت شخصيته ضمنها والبقاء فيها ، وتمكن الامة من ان يكون لها ادب عالمي تبقى فيه شخصيتها وتخلد .



كتب اخرى للمؤلف

عيد سيدة صيدنايا	قصة (طبعت في بيروت ١٩٣٢)
فاجعة حب	قصة (طبعت في بيروت ١٩٣٢)
نشؤ الامم	(درس علمي دقيق في تطور الانسانية ونشوء الامم طبع في بيروت ١٩٣٨)
دمية	قصة الفها في السجن ١٩٣٧ ولمّا تطبع